

مسئولية

فشل الدولة الإسلامية

في العصر الحديث

وبحوث أخرى

جمال البنا

المحتويات

- مقدمة
- مسؤولية فشل تجربة الدولة الإسلامية في العصر الحديث
- أخواني - الإخوان
- غياب الرؤية الإسلامية
- بين التوقع والتميع
- الإسلام خط الدفاع الأخير في مواجهة الإذابة
- نحو إطار لا مركزي... لحماية وحدة الأمة الإسلامية
- دستور إسلامي وضعه أحد أفراد النظام الخاص للإخوان المسلمين.. في الأربعينات
- الإخوان المسلمون والعمل النقابي
- بعض الخطوط التي تحكم ظاهرة "الصحوّة الإسلامية"
- خاتمة
- رأي الإخوان المسلمين في الوحدة العربية

مُتَلَمِّتًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

هذه بحوث ومقالات يجمعها أن كل واحدة تعالج همًا من الهموم، وقرحًا من القروح، وتحديًا من التحديات التي تشغل البال وتنزف الدم وتعرض الخطر وتوحي الأسى والقنوط. ولكن المعالجة تفتح أبواب الأمل وتحدد معالم السبيل وهي تتسم بالمصارحة والمجابهة التي تبعد بها عن المواربة واللف والدوران والحيث على الحقيقة لحساب المصالح المكتسبة والنظم الحاكمة والفهم التقليدي.

وقد نشرت ثلاث أو أربع منها في صحف معظمها أمريكية محدودة التوزيع. وارتوي إثباتها هنا ليعم بها النفع ولتتجو عما يطرأ لما يكتب في الصحف من نسيان.

وبالإضافة إلى الطريقة المتميزة للمعالجة التي تعرض الحالة الواقعة وتكشف وجوه النقص ثم تصف طرق العلاج فإن موضوعاتها تعطي فكرة عن الأهمية العظمى لها. فأى شيء أهم من دراسة أسباب فشل تجربة إقامة دولة إسلامية في العصر الحديث. وأي شيء أجدر بالعناية من دراسة كبرى الحركات الإسلامية الحديثة - أي الإخوان المسلمين وتحديد ما يكون من الخير أن تقوم به في نداء حار "إخواني الإخوان". وبالمثل فإن الدراسة الثالثة عن "غياب الرؤية الإسلامية" تكشف جانبًا من جوانب النقص في المعالجات الإسلامية. وتعرض الدراسة الرابعة "بين التوقع والتميع" محنة الطالب المغترب والعامل المهاجر وتقدم حلولاً آنية وسريعة كما تضع "استراتيجية" طويلة الأمد. وتقدم مثالاً لمذهبنا في تركيز العناية على اللب والجوهر وليس على القشر والمظهر.

أما مقال "الإسلام خط الدفاع الأخير في مواجهة الإذابة" فيتضمن الأفكار الرئيسية لكتاب عن هذا الموضوع نأمل أن يظهر قريبًا. وهو يجمل أبرز تحديات العصر وكيف يمكن مواجهتها. وهناك فكرة "حو إطار لا مركزي لحماية وحدة الأمة الإسلامية" الذي يدعو لنتاسي الخلافات المذهبية في سبيل الوحدة وتدعيم هذه الوحدة بمشروعات تهدف لتعزيز التواصل بين الدول الإسلامية وتحقيق التكامل الاقتصادي بينها. وبعث الكتاب من محاضر قضية "عربية الجيب" ١٩٤٨ صورة لدستور إسلامي وضعه أحد المتهمين فيها أردنا بنشره إيضاح الفرق ما بين تفكير الإسلاميين قبل الحقبة الناصرية وكيف أنه يخلو من التعسف والتعصب ودعاوى "الحاكمية الإلهية"... إلخ مما يوضح أن هذه الأخيرة هي ثمرة مرة للبذرة التي غرسها عبد الناصر في سجونها ونماها حكمه المتسلط وسياساته الفردية المتعسفة.

وثمة بحث موجز عن "الإخوان والعمل النقابي" الذي أصبح ساحة للوجود الإخواني في المجتمع المصري. أفاننت من قيود الحظر المسلطة عليهم وهو وجود يمكن أن يتضمن خيرًا للإخوان وللحركة النقابية بشرط أن يتخلى الإخوان عن "النفسية البرجوازية" التي تسيطر عليهم.

والبحت التاسع هو عن بعض العوامل التي تحكم ظاهرة الصحوة الإسلامية، ولفظ القوة والضعف فيها. ويختم الكتاب بوثيقة هامة ومجهولة تبرز رأي الإخوان المسلمين في الوحدة العربية بتفصيل، قدمت منذ خمسين عاماً وهي توضح أن الإخوان يناصرون هذه الفكرة بقوة ولا يرون فيها ما يخالف الأصول الإسلامية.

وقد يلمس القارئ تكراراً لبعض المعاني وهو ما يعود إلى أن كل موضوع من موضوعات الكتاب كتب على حدة، وفي فترات زمنية متباعدة فضلاً عن أن التكرار يغتفر للداعية، إذ لا مناص منه لتركيز وتثبيت المفاهيم حتى لا يذهب بها النسيان والمشاعل الأخرى.

إننا رغم ما انحدر إليه المسلمون من ضعف، وما يتبجح به الطغاة من قوة، لم نفقد الأمل، ولم يتطرق إلينا اليأس وكيف نياس ونحن نقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يوسف ١١٠.

جمال البنا

القاهرة

رجب الفرد ١٤١٥

ديسمبر ١٩٩٤

مسئولية فشل تجربة الدولة الإسلامية في العصر الحديث⁽¹⁾

لابد أن نعترف - والأسى يعتصرنا - بأن محاولات إقامة الدولة الإسلامية في العصر الحديث قد فشلت⁽²⁾، رغم توفر بعض مقومات النجاح، مما يؤكد أنه لا بد من توفر ما هو أكثر منها. وسنستبعد من أسباب الفشل التآمر الخارجي عليها، رغم تأثيره الكبير، وأنه هو الذي تعلق عليه أسباب الفشل لأننا نؤمن بأن التآمر الخارجي إنما يحقق غرضه عندما لا يكون هناك شعبية مؤمنة حقاً ومشاركة فعلاً. وهو ما حدث لتجربتي محمد علي وعبد الناصر في مصر، ومن أجل هذا نجح التآمر الدولي عليهما في "نافارين" و"حرب الأيام الستة".

والمفارقة أن هذا السبب لفشل مشروع محمد علي وعبد الناصر، انقضى من مشروع الدولة الإسلامية في العصر الحديث. فهو في معظم الحالات يقوم على قاعدة مؤمنة ومشاركة، ولكنه فشل لأن إيمان ومشاركة القاعدة وإن كان يحمي المشروع من التآمر الخارجي إلا أنه لا يكفل بالضرورة النجاح للمشروع. لأن من المحتمل أن لا يكون هذا الإيمان سليماً رشيداً. وهذا هو ما حدث لمعظم محاولات إقامة الدولة الإسلامية في العصر الحديث، وكان من أبرز أسباب فشلها.

أصولية الدولة الإسلامية.

لقد طعن بعض الكتاب في "أصولية الدولة الإسلامية" لعل أبرزهم الشيخ علي عبد الرازق الذي رزق بسبب كتابه "أصول الحكم في الإسلام" شهرة كبيرة ومع أن هذه النقطة ليست من صلب الموضوع إلا أنها ترتبط به وتمثل شبهة كبيرة في أذهان لفيق من المتقنين ويكون من الخير الفصل فيها.

لقد بنى الطاعنون طعنهم على الأسباب الآتية:

أن القرآن الكريم حصر دور ومهمة الرسول في التبليغ وصرح بأنه ليس له على الناس أي سلطان وأنه ليس مسئولاً عن إيمانهم لأن هذا ليس مما يملكه ولكنه مسئول عن التبليغ، وأنه ليس وكيلاً عنهم أو جباراً عليهم.

١- لم ترد كلمة "دولة" بالمعنى السياسي الشائع في القرآن ولكن "أمة" والفرق بين الدولة والأمة كبير وهو يميل لتأييد وجهة نظرهم.

ما يتطرق إلى أذهان البعض من تعارض بين الرسالة النبوية التي تقوم على التبليغ وتتسم بالحكمة والموعظة الحسنة والإيمان القلبي، وسلطة الحكم وما يتسم به من قهر [سجون، بوليس، جيش...].

⁽¹⁾ نشر القسم الأول من البحث في جريدة "القدس" اليومية التي تصدر في لندن العدد ١٦٨٩ في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٤.

⁽²⁾ قد لا يصدق هذا الحكم تماماً على تجربة السودان. التي تكافح في ظروف قاسية وغامضة.

ولكن يرد على هذه الاعتراضات.

أن القرآن الكريم أصلاً كتاب هداية إلى العقيدة. وإذا عالج شيئاً آخر غيرها من تاريخ أو علوم أو جغرافية فمن باب الاستدلال وإعمال الذهن، وليس من الضروري أن ينص القرآن على الدولة الإسلامية.

أن بعض أركان العقيدة نفسها كالزكاة تتطلب سلطة تتسلح بالإكراه عند الضرورة فضلاً عن نصوص أخرى عن أمور تتدخل في إطار الدولة كمودعة أهل الكتاب ومقاتلة الباغين... إلخ.

أن التبليغ يدخل فيه الإيضاح والتبيين - خاصة وأن القرآن الكريم يغفل ذكر التفاصيل حتى في أخطر ما يتعلق بالعقيدة كالصلاة والزكاة، والصوم... إلخ. ففي هذه كلها لم يضع القرآن سوى التوجيه العام بدون التفصيل الخاص وقامت "السنة" بذلك ولا يعد هذا افتتاً على القرآن، بأي وجه وعندما نصف أمراً ما بأنه "إسلامي" فإن هذا يختلف عن أنه "قرآني" لأن الإسلام يضم القرآن والسنة أو "الله والرسول".

وما يمكن أن ننتهي إليه هو أن مبدأ أصولية الدولة الإسلامية، أو أن الدولة تدخل في إطار الإسلام أمر لا نرى أنه محل جدل ويمكن أن يستخلص من القرآن نفسه، وإن كانت الدولة الإسلامية الأولى من إنشاء الرسول وما يجوز الاجتهاد فيه ليس هو أصولية الدولة الإسلامية، ولكن تفاصيل وطريقة ونظام الدولة الإسلامية، لأن معظم هذا من إنشاء الرسول، ولم يختلف أئمة الفقهاء في أن ما يقوم به الرسول بصفته الإمام أو الحاكم ليس له إلزام ما يقوم بتبليغه كرسول عن العقيدة.

وهذا ما يضيق الشقة بين وجهتي النظر وإنما احتدم الخلاف لجهل فريق بأن نظام الدولة الإسلامية اجتهادي وإن كان مبدؤها أصولياً، وشدة تعصب وضيق أفق فريق آخر يريد أن يجعل تفاصيلها أصولية لا اجتهاد فيها.

الدولة الإسلامية تاريخياً:

ونحن نرى أن الدولة الإسلامية ظهرت بالفعل مع بداية وصول الرسول إلى المدينة. وبدأت على يدي الرسول نفسه عندما أشرف على بناء المسجد، وشارك فيه. والمسجد في الإسلام هو ملتقى المسلمين كما هو مكان عبادتهم، إذ لم يكن هناك مكان عام آخر غيره للاجتماع واتخاذ القرارات العامة ومناقشتها.

وبعد إقامة المسجد مارس الرسول برضا وتسليم كل المؤمنين: مهاجرين وأنصار مسئوليات رئيس الدولة فقاد الجيوش في المعارك وأبرم المعاهدات وتولى توزيع الزكاة والمالية العامة... إلخ. وهذه كلها من صميم اختصاصات رئيس الدولة بحيث لا يمكن القول إنه كان نبياً فحسب أو أنه أوجد "أمة"، لقد أقام أمة ودولة.. وكان رئيس دولة قدر ما كان رسول دعوة.

وظهر أثر ذلك في أنه عندما توفي لم يعد العرب إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام. وعندما أراد البعض ذلك اعتبروا مرتدين وأعلنت عليهم الحرب وكان لابد من الإبقاء على الدولة التي أقامها محمد حتى لو اختلفت شيئاً ما لأن أحداً ما كان يمكن أن يملأ مكان محمد بملكاته ومواهبه وقدراته، فضلاً عن خصوصيته الفريدة كرسول ونبي وهكذا وجدنا أنفسنا في "السقيفة" وتمت بعد بعض المناوشات بيعة أبي بكر.

وعندما أحس أبو بكر بمرض الموت، أهمه أمر الطريقة التي يأتي بها من سيخلفه، كانت بيعة أبي بكر "قلته" بتعبير عمر بن الخطاب وكان أبو بكر يعلم هذا وأراد أن يحمي المسلمين من "قلته" أخرى غير مأمونة والعهد حديث ولم يمض في الحكم سوى عامين. ولهذا أباح لنفسه أن يختار أفضل المرشحين، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن قام بعملية "شورى" طويلة أكدت له صواب ترشيحه وقبول المسلمين له وهكذا ولي عمر.

ونحن لا نعرض الطريقة التي بويع بها عمر كإحدى الطرق التي يمكن أن تستخدمها الدولة الإسلامية في العصر الحديث ولكن لإيضاح ملامساتها. وقد كان عمر هو المؤهل لوضع نظام "منهجي" لإدارة الدولة. وربما لو اختار في حياته ستين، وليس بعد موته ستة لوضع بذرة أقرب النظم إلى الإسلام.

ولكن الملامسات لم تكن تتطلب ذلك ضرورة. كان النظام القائم يؤدي دوره ويكفي، ولو اقترح أحد أن تكون ولاية الخليفة محددة المدة لرفض، لا على أساس أن هذا يخالف نصاً أو يعارض أصلاً. ولكن لأنه لم يكن له ضرورة وكان من المحتمل أن ينطوي على مخاطر القلقله في وقت بناء الدولة الجديدة. ولعل هذه الأسباب هي التي حالت دون أن ترد فكرة تحديد مدة الحاكم.

فكل نظام سياسي هو ابن ملامساته وموقعه وتاريخه. ومن ثم يفترض أن تختلف النظم. وما حدث في خلافة أبي بكر وعمر كان ثمرة واقعية للملامسات والأحداث. وقد كان من أسباب قوة الإمبراطورية الرومانية - في فترة ما - أن بعض القياصرة كانوا يتبنون أفضل الشخصيات ويرشحونها للحكم أو يدفعون بها لممارسة المسؤوليات الكبيرة بحيث يكون توليهم للحكم أمراً تلقائياً. وقد تصور جورج برنارد شو في مسرحية "ميجور بربارا" مؤسسة رأسمالية لأصحابها مثل هذه العقلية فهم يتبنون أفضل العناصر في الشركة ويدفعون بها لإدارتها.

المهم في هذا أن دولة النبوة التي أقامها الرسول وانتهت بوفاته، أعقبتها "دولة الخلافة" التي بدأت بأبي بكر وانتهت بعلي بن أبي طالب وقدمت خلال ذلك نموذجاً ثانياً للدولة الإسلامية حتى جاء النموذج الثالث الذي وإن انطلق من الإسلام فإنه بدأ الانحراف عن المبادئ والمثل التي قامت عليها الدولة الإسلامية، ومن أجل هذا أطلق عليه دولة "الملك العضوض".

ومع أن الانحراف عن المبادئ والقيم الإسلامية بدأ مع معاوية إلا أن الموجة التي أثارها الإسلام كانت من القوة والعرامة بحيث جاوزت كل ما أوجده الانحراف، وسمحت بوجود قادة أكفاء وحملت الإسلام إلى إيران والصين والهند وأسبانيا. وظلت الدولة الإسلامية مزدهرة كدولة تآكلت فيها معظم مقومات الدولة الإسلامية ولكن الباقي كان يكفي لاستمرار الدولة. حتى دخلها الترك في أيام المعتصم وأوتيت من الداخل. ولكنها واصلت البقاء حتى هاجمها هولاءكو وأسقط الخلافة العباسية عام ٦٥٦ - ١٢٥٨.

ومع هذا فإن فكرة دولة الإسلام كانت قد تأصلت بحيث أنها عندما قضي عليها في بغداد وجدت ملاذاً آخر في مصر التي نهضت بها، ومكنتها من أن تحرز أعظم انتصاراتها: الانتصار على المغول والتتار في

عين جالوت. والانتصار على الصليبيين في حطين والمنصورة. وكان انتصار المنصورة آخر عهد الدولة الإسلامية في الشرق بالانتصار. ولما جاء نابليون بعد ثلاثة قرون لم يجد من يقف أمامه كما وقف بيبيرس وقطرز وصلاح الدين.

حقاً رفع الأتراك اللواء الإسلامي وأوصلوه حتى أعماق البلقان وأسوار فيينا وحكموا اليونان، ولكن الإسلام في سلطنة آل عثمان كان رمزاً أكثر مما كان حقيقة.

وفي الوقت الذي كان أبو عبد الله آخر سلالة بني الأحمر يسلم مفاتيح غرناطة لفرديناند وايزابيلا ليطوي آخر صفحة من حكم الإسلام في أسبانيا، كان كولومبس يبحر ليكتشف عالماً جديداً وكان التجار المغامرون يمخرون بسفنهم البحار السبعة لبيدعوا العهد الأوروبي وبنهوا العهد الإسلامي - حتى وإن جاءت النهاية الرسمية لإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ ولم يكن في الخلافة وقتئذ من الإسلام إلا الاسم.

من هذا العرض يتضح أن الدولة الإسلامية حقاً لم تدم سوى أربعين عاماً. عشر منها دولة النبوة وثلاثون دولة الخلافة، ولكن هذه المدة القصيرة كانت من القوة بحيث وضعت تقاليد وأرست أسساً وبنيت نموذجاً لألف عام. بنسب متفاوتة، وظلت تتآكل مع الزمن حتى انعدمت كلية في العقود الأولى للقرن العشرين وكان إلغاء الخلافة الرسمي تحصيل حاصل.

وفي الوقت نفسه - فإنه يثبت أن الذين يظنون أن ليس في الإسلام دولة، ويفصلون بين الإسلام وفكرة الدولة يخطئون في الواقع، وفي الواجب: في الواقع لأن الرسول أقام دولة نسج على منوالها الخلفاء الراشدون وهذه حقيقة وواقع، وفي الواجب، لأن هذه التجربة قدمت إضافة ثمينة إلى عالم النظم السياسية، وكان يمكن لو ألم بها الأوروبيون أن تثري تجاربهم. كما أنها تمثل ذكرى عميقة في قلوب المسلمين هي محل زهو، وفخر، وإعزاز المسلمين جميعاً، لأنها بدأت على يدي الرسول نفسه واشترك فيها صحابته الذين يتمتعون بكل الحب والتقدير، وأنها تمثل تجربة الإسلام لوضع نظام حكم لا يقوم على الغلبة أو القوة، أو الثراء أو الأرستقراطية ومحاولته إبداع حلول إنسانية لإصلاح السلطة التي هي مفسدة بطبيعتها. ونجحت التجربة في ذلك، وإن لم تستمر سوى أربعين عاماً.

دعوة وتجارب الدولة الإسلامية في العصر الحديث:

في أشد ساعات الليل الطويل الذي أطبق على العهد الأخير للخلافة، انبثق شهاب كان يؤذن بالفجر. كان هذا هو "جمال الأفغاني" الذي دق الدقة الأولى لإيقاظ المجتمع الإسلامي الغارق في سباته. وأراد جمال الأفغاني "دولة" أو "كومونلث" يقوم على أسس إسلامية ويستلهم قيماً إسلامية وكانت وسيلته لذلك إثارة النخبة التي يكون عليها أن تصل إلى الحكم بمختلف الوسائل، بما في ذلك الثورة.

لم يعيش جمال الدين ليري صدى صيحته المدوية. ولكن الصيحة كان لها آثار أشهرها ما انتقل إلى

محمد عبده. ولكن أهمها - فيما نحن بصدده - هو ما وصل إلى حسن البنا ومجموعة أخرى من المفكرين والدعاة الإسلاميين وقتئذ في معظم الدول الإسلامية، وكانت قد سبقته - كما لحقته - محاولات لتكوين دولة إسلامية.

ففي الحجاز ظهر في وقت متقدم داعية إسلامي إصلاحي أراد إنقاذ الإسلام من الخرافات والخزعات التي كانت حشو أروية الشيوخ والفقهاء وقتئذ. وتعاون مع أحد الحكام بحيث كفل للدعوة الإصلاحية السيف الحاكم وظهرت الدولة الوهابية في نجد أولاً ثم في الحجاز ثانياً ولكن مضمون الإصلاح في فكر محمد بن عبد الوهاب كان ساذجاً، فقد ارتبط بتخليص العقيدة معاً اعتبره شركاً، يتمثل في التوسل والشفاعة والقباب وإقامة المقابر... إلخ.

أما بالنسبة للدولة الإسلامية على وجه التعيين فلم يكن لديه شيئاً أو لم يعنه باعتبار أن ذلك هو اختصاص الحاكم أما هو - الفقيه - فقد عني بتجريد العقيدة من شبهات الشرك.

إننا لم نكن لنطلب من محمد بن عبد الوهاب أن يقرأ تاريخ الإمبراطورية الرومانية أو الثورة الفرنسية أو يعرف ما قدمه مونتسكيو أو جان جاك روسو. إنه لم يكن محتاجاً لهذا ولا كانت رمال صحراء نجد تحتمله. ومع هذا فما كان متصوراً حتى في أشد النظم سذاجة وبساطة أن تبنى دولة بهدم القباب! كان المطلوب من محمد بن عبد الوهاب أن يجري توازناً بين تخليص العقيدة من أدران الشرك وتخليص الحكم من لوثات الظلم.

في الهند وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية كان المسرح يتهيأ لظهور دولة إسلامية جديدة تختلف ظروفها وملابساتها اختلافاً كبيراً عن الدولة السعودية.

فعدما وعدت بريطانيا الهند بالاستقلال، تبدت لمسلمي شبه القارة الهندية مشكلة نظام الدولة القادمة التي كان المسلمون فيها قرابة الثلث أو أكثر عدداً وكان لدى الأغلبية الهندوسية نزعة عدوانية تجاه المسلمين، أججها الحكم الاستعماري البريطاني الذي أراد أن يفرق وحدة الهند، وإن ينتقم من المسلمين الذين كانوا أكبر عناصر الثورة عليهم. فقربوا إليهم الهندوس وقلدوهم المناصب وأحبوا فيهم ذكرى الحكم المغولي للهند وغزوات المسلمين القديمة لها، فتوجس المسلمون خيفة من أن يحكم الهند حكومة تكون الأغلبية فيها للهندوس المتعصبين.

وكان في الهند وقتئذ عدد من أفضل المثقفين الإسلاميين مثل "أحمد خان" مؤسس جامعة عليكره، وسيد علي مؤلف كتاب "روح الإسلام"، ومولانا أبو الكلام آزاد الذي كان يعد أكبر شخصية إسلامية سياسية يأتي في حزب المؤتمر بعد غاندي ونهرو مباشرة. وكانت اتجاهات هذه المجموعة إصلاحية. ولم يكن العيب فيهم الفجاجة أو الجهالة أو ضيق الأفق أو غلبة التعصب فقد كانوا جميعاً من قمة "الانتليجنسيا" الإسلامية الملمة بالثقافة الحديثة، ولكن الذي كان ينقصهم هو وقدة الحماسة الثورية ونظرية "الدولة الإسلامية" وهذا النقص هو

ما استدركه ظهور عدد آخر من القيادات كان أبرزهم "محمد إقبال" المتقف الشاعر - السياسي الذي كان لديه نبع لا ينضب من العاطفة الإسلامية يكفي لري الدولة الإسلامية المنشودة. ومثل السياسي المناور محمد علي جنّه رئيس الرابطة الإسلامية الذي استطاع أن يستخلص "باكستان" من قبضة الهنود والمسلمين التابعين للمؤتمر، ومثل العلامة المودودي الذي تعمق في الدراسة الفقهية بحيث استخلص أفضل ما تجود به. وكان هؤلاء جميعاً مكونين تكويناً سياسياً، وكان أفضلهم هو إقبال الذي توفر له قوة الحماسة وسعة الأفق، ولكنه توفي في السنوات الأولى للدولة فلم يتسع له المجال ليؤدي رسالته، وعلى نقبض ذلك أنفسح المجال للمودودي ليقدم نظريته عن الدولة الإسلامية التي كانت أفضل ما يمكن أن يخرج به مفكر سلفي.

أما جنّه فقد كان سياسياً مطبوعاً، كان الإسلام بالنسبة إليه قومية للمسلمين تميزهم عن الهندوس وكانت مهمة الدولة الإسلامية هي الحيلولة دون تحكم الهندوس في المسلمين. فميزتها العظمى سلبية - وكان يكفي أن تقوم الدولة وتضفي حمايتها على المسلمين وتكفل لهم حرية الاعتقاد لتقوم بدورها، ولم يكن ليرفض بعد ذلك أن تكون أوروبية الهوى. وقد كان هو نفسه "باريستر" بريطاني، أقرب إلى البريطانيين منظرًا، ومزاجًا منه إلى شعب باكستان.

وظهر وقتئذ مفكر التحق بخدمة باكستان هو النمساوي اليهودي محمد أسد [سابقاً ليوبولد فايس] الذي آمن بالإسلام عن اقتناع، ووصل إلى لب وجوهر الإسلام وأصدر مجلة "عرفات" وأخذ يدعو لفكرته عن الدولة الإسلامية - كما يجب أن تكون. واكتشف نفاق السياسيين الباكستانيين تجاه الإسلام. ولو استلهمت باكستان إقبال ومحمد أسد لكانت أقرب إلى الدولة الإسلامية المنشودة. ولكنها استلهمت المودودي من ناحية، وجنه من ناحية أخرى فوققت بين السلفيين التقليديين والسياسيين الانتهازيين.

وكما قلنا آنفاً، فإن المودودي استطاع أن يقدم رؤية سلفية للدولة الإسلامية بأسلوب سهل سائغ، مدعم بالآيات والأحاديث، مسلح بالأمثلة التي تعين عامة الناس على الفهم.

ولكن هذا الفكر كان ساذجاً، يفترض أن في النصوص وحدها قوة تهزم الطبيعة البشرية، وكان يتجاهل التعقيد الاجتماعي، وما يطرحه العصر من مشكلات وقضايا جديدة بالمرّة لا يمكن للقياس السلفي معالجتها. كانت قوة فكر المودودي أنه فكر سلفي يتسلح بأقوال الفقهاء وكان ضعفه أنه أيضاً - سلفي - يتخلف عن التطور.

ولعل باكستان أقدر من أي دول إسلامية أخرى على حل أزمتها، لأن هذا لا يتطلب منها سوى أن تطوى كتب المودودي وتفتح كتب إقبال وأسد. وأولهما بطل من أبطال باكستان لا يقل عن "القائد الأعظم" جنّه نفسه والثاني مفكر إسلامي وهب زهرة عمره لخدمة باكستان وقدم أفضل تصور للدولة الإسلامية.

ولكن يظل أمام باكستان - كما يظل أمام الدول الإسلامية الأخرى - ظهور القيادة النابغة، وهذا ما لا يمكن أن تأتي به الكتب - وإن كان من الممكن أن تصقلها - ولكن يأتي بها الله تعالى.

وهذا ما يصلنا بإيران، لأن الله تعالى أنعم على إيران بهذا العنصر الثمين، ويسر لها قائدًا تبلورت فيه الدعوة للدولة الإسلامية.

ولو أن نهضات الأمم تقاس بحماستها لقائدها، وطاعتها له، لحازت إيران الخميني قصب السبق.

إن إيران تقدم لنا صورة ثالثة لتجربة الدولة الإسلامية توفر لها العديد من مقومات النجاح، ولكنها مع هذا لم تتجح!

فها هي ذي دولة تتوفر لها كل مقومات النجاح كدولة، إن لم تكن كبرى فوسطى، لديها ثروة بترولية تجعلها الثانية في العالم، ولديها أراضي فسيحة صالحة للزراعة ومعادن ومناجم عديدة وشعب ذكي عريق يحق له أن يفخر - كمهيار - بحضارة الفرس ودين العرب.

وكانت هذه الدولة محل أطماع الدول الاستعمارية في العصر الحديث، وبوجه خاص روسيا المتاخمة لها وبريطانيا الطامعة في ثرواتها، وحاولا اقتسامها وانتهابها، فعمدت روسيا إلى استلحاق المناطق المتاخمة لها، بينما حاولت بريطانيا استنزاف ثرواتها بالاتفاقيات التجارية وكان من هذه الاتفاقيات اتفاقية احتكرت بمقتضاها شركة بريطانية إنتاج وتوزيع "التمباك" وهي المناسبة التي استصرخ فيها جمال الأفغاني المجتهد الأعظم "الشيرازي" الذي أصدر فتوى حرم بها استعمال التمباك فأضرب الناس جميعًا عنه وقيل إن الشاه عندما طلب نازجيلته، قالوا له لقد حرمها الشيرازي. وكادت الشركة تفلس حتى عوضها الشاه.

وانتهى الملك في هذه الدولة إلى قائد عسكري اغتصب الحكم حتى جاء عليه الدور عندما عزله الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وولوا ابنه. وكان هذا الابن - شاه رضا بهلوي - شخصًا مجردًا من الموهبة مزهوًا سطحيًا اغتر بثروات بلاده الطائلة فأخذ ينفق منها بسفه أعاد إلى الأذهان سفه الخديوي إسماعيل في أيامه. وكان هو وأسرته دور السلطة، وبؤرة الفساد الذي أخذ يستشري ويلتهم ثروات البلاد، وكان همّ الشاه الوحيد هو أن يوجد لنفسه ولي عهد! كأن إيران بدون ستفلس! وطلق زوجاته في هذا السبيل حتى جاءت آخر زوجاته بولي العهد الذي عندما ظهر كان قد فقد العرش، وأصبح ولي العهد مشردًا طريدًا، كولي عهد فاروق من قبل.

وكان الشاه عازفًا عن الإسلام يستند في حكمه على أسنة الرماح، وعلى حماية "السافاك" وعلى تأييد أمريكا التي جعلته "شرطي" الخليج وحاول أن يقوم بثورة بيضاء فشلت فشلاً ذريعًا لغلبة الفساد والبيروقراطية.

وكان في إيران "انتلجنسيا" إسلامية، مكيفة تكييفًا سياسيًا بالنسبة للاتجاه السياسي للمذهب الشيعي الذي يرى في الإمامة ركنًا من أركان العقيدة، مثل علي شريعتي وبني صدر وبازرجان وغيرهم من الذين ألموا بالثقافة العصرية واحتفظوا بالأساس الشيعي/الإسلامي ولكن الشاه ما كان يسمح لهم بالظهور أو يسمح لأفكارهم بالانتشار.

في هذه الملابس ظهر على الساحة آية الله خوميني الذي كان الشاه قد لاحقه بالاضطهاد ثم نفاه، فمكّنه بذلك من حرية العمل.

وتجمعت في آية الله خوميني الصفات التي تكون القائد الرمز، وتجعل الجماهير تعطيه حبها أو حتى هوسها بحيث قدر له أن يكون رمز الثورة التي حان حينها. وما أن غادر منفاه في فرنسا إلى إيران، حتى تهاوى النظام الإمبراطوري الشاهنشاهي كبيت من ورق فهرب الشاه وهرب ضباط السافاك القساة. واستسلمت المؤسسة العسكرية التي كانت أكبر قوة عسكرية في المنطقة تضم جنرالات الجيش وأميرالات البحر ونسور الجو، وكلهم من الضباط المحترفين الذين تمرسوا بالضبط والربط العسكري وتلقوا تدريباتهم في الولايات المتحدة. وغصت طهران بالجماهير التي جاءت من كل حدب وصوب للترحيب بهذا الشيخ العجوز..

لقد قارن كاتب أوروبي استقبال الروس للينين عندما عاد من منفاه في سويسرا عام ١٩١٧ باستقبال إيران للخوميني، ولكن هيهات هيهات، فالذين استقبلوا لينين على المحطة كانوا عشرين أو ثلاثين ألف نصفهم من أنصاره، ونصفهم من المعسكرات الأخرى، أما عندما جاء خوميني، فإن الشعب الإيراني بقضه وقضيضه كان في انتظاره.

وبدأ عهد جديد.

وتوفر لهذا العهد معظم مقومات النجاح.

فهي دولة غنية قوية يسكنها شعب مؤمن وثمة نظرية للإمامة وهناك زعيم يحرك الجماهير.

من أجل هذا بدا وكأن تجربة إيران أقرب تجربة إسلامية إلى النجاح.

ومع هذا فقد كان مقضيًا عليها أن لا تبلغه.

إن القوى الأوروبية لمست قوة هذا النجم الصاعد في سماء الإسلام. فزجت به في حرب لمدة ثماني سنوات، استنزفت فيها كل ثروات إيران والعراق، وجزءًا كبيرًا من ثروات العرب.

صحيح أن الإمام الخوميني أحسن عندما أنقذ الفكر الشيعي من آثار فكرة "غيبية الإمام" وأنه في هذه الغيبة، لا جدوى من أي عمل. لقد قضى على هذه الفكرة التي كانت تعطي الكفاح أجازة مفتوحة وتعفي أصحابه من العمل، ولكنه لم يستطع التحديد السليم في فكرة "ولاية الفقيه" بين موروثات المذهب وضرورات العصر. حتى وإن بدت الفكرة "ولاية الفقيه" لازمة مادامت الثورة قد قامت على نظرية فقهية إسلامية.

وكان علي شريعتي - أنبه مفكري الشيعة - قد وضع حلاً للفكر الشيعي يخلصه من أزمتيه، عندما أوجد فاصلاً بين التشيع العلوي الذي يعود إلى علي بن أبي طالب والتشيع الصفوي الذي يعود إلى الدولة الصفوية التي حكمت إيران في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، واستبعد شريعتي كل التشيع الصفوي باعتباره غريبًا على التشيع العلوي وأنه تأثر بالعداوة المريرة والحروب الطاحنة بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية التي كانت تمثل السنة.

ويبدو أن هذا كان أكبر مما يمكن أن يحتمله آيات الله لأنه كان يتطلب عملية جراحية في المذهب تؤدي بأجزاء اعتبرت من صلبه وهو ما لم يستطعه خوميني، ومن هم بعده، ممن كانوا أضعف من أن يقوموا بهذا التجديد الجذري.

ولا نستطيع أن نحدد نسبة "إسلامية" الدولة القائمة في إيران اليوم، وهذا في حد ذاته دليل على غموض هويتها وتميعها.

في الأفغان نجد تجربة رابعة لحكم إسلامي، بدأ كمقاومة إسلامية للاحتلال السوفيتي، وانتهى بأن أصبح محوراً لحرب أهلية بدلاً من أن يكون قاعدة لسلام اجتماعي.

هذه البلاد الجبلية الشاهقة التي أهدت للعالم الإسلامي الثوري الأعظم جمال الدين، والتي هزت كل من أراد أن يدخلها بما في ذلك الإنجليز - تعرضت لاكتساح سوفيتي نتيجة للخيانة من الداخل وتواطؤ الحزب الشيوعي.

أيقظ هذا الحدث الحاسة الإسلامية وتبلورت فيها روح المقاومة وارتفع اسم المجاهدين وانهارت المساعدات عليهم من العالم الإسلامي، بينما هرعت مجموعات عديدة من الشباب المسلم للمشاركة في الجهاد.

وقد عُلم الآن أن ما قدمته الولايات المتحدة كيداً في الاتحاد السوفيتي، وليس حباً في الأفغان قد يفوق ما قدمه العالم الإسلامي، وربما كان العامل الذي كفل للمقاومة الإسلامية النجاح.

وهذا لا يضائل من أثر العنصر الإسلامي في المقاومة، فلو لم يكن موجوداً وعميقاً في الشعب الأفغاني لما ظلت المقاومة، ولما انتصرت في النهاية. على أن انتصار المقاومة وطرد المحتل الأجنبي أسفر عن مأساة. إن الفصائل التي قادت الجهاد، بدلاً من أن تعكف على بناء الدولة التي أحالتها الحرب إلى أنقاض أخذت تحارب بعضاً للاستيلاء على السلطة وتجهز على البقية الباقية من البلاد.

أين هنا الوعي الإسلامي؟ لقد كان قوياً عندما كان الأمر محاربة الشيوعيين... الكفرة... الأجانب.

ولكنه لم يظهر ليحول دون أن تقاوم الفصائل المجاهدة بعضها بعضاً.

وأقل ما يقال فيه أنه وعي ناقص.

هذه أربع تجارب لإقامة دولة إسلامية، توفر لها بعض مقومات النجاح⁽³⁾.

فيها جميعاً وجد شعب مسلم يريد من كل قلبه الدولة الإسلامية.

وفي دولتين - السعودية، وإيران - لم يكن العامل الاقتصادي حائلاً أو معوقاً. لأنهما يتمتعان بثروات كبيرة.

(3) لم نتحدث عن تجربة السودان التي تكافح بقوة - ولعلها أفضل التجارب - لعدم توفر المواد التي تبني عليها الأحكام. كما لم نتحدث عن مصر لأن دعوة إقامة دولة إسلامية أصيبت بضربة قاضية اغتيال الأمام الشهيد حسن البنا ولا يمكن أن تنتهض منها إلا عندما يظهر بنا ثانٍ يبدأ حيث انتهى الأول.

لماذا أذن فشلت تجربة الدولة الإسلامية؟

أسباب فشل تجربة الدولة الإسلامية:

كان السبب الرئيسي الذي أدى إلى فشل تجربة الدولة الإسلامية في العصر الحديث هو **عدم تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية التي تميزها عن غيرها وتتضمن مقومات النجاح**. مثل هذه الرؤية تكون نتيجة انصهار العناصر العديدة المكونة لها في بوتقة العقيدة بحيث تخرج سبيكة أصيلة بعيدة عن التلفيق في الأهداف أو التنافر في الوسائل، فوسائلها تؤدي إلى أهدافها، وأهدافها ثمرة وسائلها، وهذا وذاك محل رضا وقبول الذين قدمت إليهم.

وبديهى أن الشرط الأول لنجاح أي تجربة جديدة في عالم النظم هو سلامة النظرية أو العقيدة التي تقوم عليها التجربة، فلا تجربة بدون نظرية، لأن النظرية هي محور العمل فهي التي تحدد الوسائل والغايات، وتعيّن الأولويات وتحصن أصحابها من الانزلاق أو الانحراف، فالنظرية الماركسية بدت سليمة منذ أن وضعها ماركس في منتصف القرن التاسع عشر، وعلى أساسها قامت تجربة "الاتحاد السوفيتي" وكانت تجربة مثيرة، وحقت إنجازات ضخمة، ولكن ظهر في سنواتها الأخيرة النقص الكامن فيها الذي لم ينتبه إليه دعاةها حتى استشرى وأدى إلى تهاويها.

ويعود العجز عن تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية إلى أن صورة الدولة الإسلامية التي أقامها الرسول، ونسج على منوالها الخلفاء الراشدون كانت قد طمست في الفكر السياسي الإسلامي، أو اعتبرت مما لا يمكن تكراره، وأنها أقرب إلى النبوة التي لا تتكرر منها إلى الملك الذي تدور عليه الأمور. وهذه الفكرة نجدها في بعض كتابات المتقدمين مثل الجاحظ في "التاج" والطببائي في "الفخري"، ولعلمهم وجدوا في قصر مدتها وسمو مثالياتها ما يشفع لهم في هذا الحكم. وإلا لكان عليهم الإقرار بأن كل ما تلاها - من عهد معاوية حتى عصورهم - كان ملكاً عضواً يختلف عن الخلافة الراشدة، وما كان يمكنهم أن يقرروا بذلك وأحكام هذا الملك مبسوطه وسيوفه مصلته.

وقد حاول الأئمة في الأيام الأولى للعهد الأموي والعباسي الثورة على نظم الملك العضوض واشترك في هذه الثورة الأئمة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، وتعرضوا لأشد صور الاضطهاد. وفشلت الثورات التي قام بها بعض الطالبين لأن رجال الملك العضوض كانوا أدرى بفنون القتال ولديهم الجيوش والأموال. وكانت النتيجة أن نفى الأئمة اليبدين من موضوع الدولة، وركزوا جهودهم في العبادات التي لا دخل للحكام فيها، وشيئاً فشيئاً زحف النسيان على القيم التي كانت هي سر قوة دولة الإسلام، ولم تبق إلا الممارسات الظالمة للحكام. وأصبح أقصى آمال الفقهاء أن تتمسك الدولة "بحفظ الدين" باعتباره المقصد الأول من مقاصد الشريعة أي أنهم **عالجوا الدولة من المنظور الفقهي**، وليس من المنظور السياسي. وهو ما يتفق مع ما اضطروا إليه من إطراح معالجة الدولة معالجة سياسية بعد أن هزموا أمام الحكام واقتصر على الفقه والعبادات. ولعلمهم أرضوا ضميرهم بأن "حفظ الدين" يتضمن فيما يتضمنه الثورة على الظلم، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنهم لم يصرحوا بذلك لأن المجال ما كان يسمح لهم بذلك. والتبس الأمر على من جاء بعدهم خاصة وأن المجتمع الإسلامي كان يتدهور بحيث أصبح مفهوم حفظ الدين هو إقامة الشعائر الدينية والمحافظة على ظواهر الفضيلة.

وظل هذا الفهم يتدرج حتى وصل إلى الدعاة الإسلاميين الذين إما أنهم كانوا فقهاء بالفعل أو أنهم استمدوا أفكارهم من الفقه التقليدي ومن ثم كان الفهم السائد في الدعوات الإسلامية المعاصرة للدولة الإسلامية، أنها الدولة التي تقيم الصلوات، وتقاوم الإلحاد والبدع التي يدخل فيها تبرج النساء وشيوع الفنون.

وهذا خطأ بالغ تاريخياً، وأصولياً وعملياً، أما تاريخياً، فلا خلاف أن المسلمين الأول ما أقاموا دولتهم وسيروا جيوشهم لحمل الناس على الصلاة وحجب النساء في البيوت. لقد كان الجديد الذي تميزوا به عن أقرانهم العرب، وعن الفرس والرومان، أن الإسلام زودهم بالقيم الحضارية التي لم يكن لها حساب عند الآخرين فعرفهم على العدل والمساواة والحرية، والخير والعمل الصالح، والإيثار والإنفاق، وكرههم في الظلم والاستغلال والأثرة والبخل والاستعباد للشهوات. وكل هذا كله بالإيمان بالله، أصل هذه القيم، ومبدعها الذي كفل لها القداسة التي تصل للإيمان، والموضوعية التي تحول دون التلاعب. وقد لا نجد في كتاباتهم وأقوالهم التي وصلت إلينا شيئاً بهذا الأسلوب، لأن الأساليب تتبع العهود، ولكن مضمون ما فهموه هو ما قلناه وهذا هو ما يخرج به أي واحد يقرأ القرآن مجرداً فلا ريب أن قلبه سينخلع مما وضعه من وعيد للظلم والجبروت واستعباد الناس، وأن نفسه ستستبشر لما وعد به المؤمنين من نعيم لقاء البذل والتضحية والإنفاق والعدل والإيثار وسيتيقظ ذهنه من رواسب الآباء والأجداد والتقاليد والأوضاع وسيسير في الأرض لتتكشف له العوالم وآثار الأقدمين.

ولا يمس هذا أن تلجأ النصوص في بعض الحالات إلى تجريد مثل "في سبيل الله" أو "وجه الله" أو "لتكون كلمة الله هي العليا" لأن هذا في النهاية هو ما جاء به الإسلام من فعل الخيرات وتجنب الموبقات. والمقصود بالتجرد ليس هو الفعل، لأننا لا يمكن أن نقدم لله تعالى ما ينفعه بالطاعة أو ما يضره بالمعصية، وإنما يمكن أن نتقرب إليه بطاعة أو امره. والمقصود بالتجريد هو خلوص النية في العمل وأن يكون صادقاً فلا يبتغي به الكسب الشخصي أو الرياء أو النفاق أو الزهو لأن هذه بالطبع ستكون لها انعكاساتها على سلامة العمل. ومع أننا قد لا نجد الصيحات الانتهاضية الشعبية الثورية على طريقتنا الخاصة في هذا الزمان، فإن من يراجع كلام جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي عندما سأله عن الإسلام، ومن يقرأ كلام قادة الجيش الإسلامي قبيل القادسية للقائد رستم، يلمس تماماً أنهم فهموا الإسلام هذا الفهم: أنه أمرهم بمكارم الأخلاق ونهاهم عن سفاسفها، وأنقذهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، من عبادة الحكام إلى عبادة الله وإن الإسلام "يحسن الحسن ويقبح القبيح"⁽⁴⁾. وأن المسلمين كالجسد بعضهم من

⁽⁴⁾ وكما لاحظنا في مكان آخر، فإن النعمان بن مقرن عندما قال ذلك ببساطة "أنه يحسن الحسن ويقبح القبيح" حل مشكلة المعتزلة بأهون الأسباب وأفضل الصور.

بعض يجبر أديانهم على أعلاهم⁽⁵⁾. وهذه الكلمات المنقولة بنصها تبرز الوجه الاجتماعي والإنساني لدولة الإسلام، وأنه هو الذي يمثل امتيازها.

يتضح لنا إذن - من الناحية التاريخية - أن صورة الدولة في أذهان المسلمين الأول، وكما وصفها القرآن الكريم وطبقها الرسول كانت شيئاً مختلفاً بالمرّة عما تركته لنا كتب الفقه الإسلامي عن مضمون "حفظ الدين" وأنه إقامة الشعائر، ومحاربة البدع.. إلخ.

وأن عنصر القوة فيها لم يكن فيما جاء به الإسلام من صلاة أو صيام، فهماً في كل الأديان. ولكن في القيم التي أبدعت نمطاً جديداً من الدولة لم يكن للبشرية عهد بها، وكانت هذه القيم هي التي كفلت للدولة الإسلامية الانتصار والازدهار.

ومن الناحية الأصولية فالمفروض أن "حفظ الدين" لا يدخل في الشريعة، ولكن في العقيدة، لأن الشريعة إنما تخص المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما يتصل بالناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض. أما ما يتصل بالله فهو إلى العقيدة أقرب وأمس، وأمور العقيدة من صلاة أو صوم أو حج والإيمان بالله والرسول واليوم الآخر... إلخ - تقوم على الإيمان إلى يعتمد على الحكمة والموعظة الحسنة، ولا يمكن أن يدخل فيه قسر. ولما كانت خصيصة الدولة المميزة لها عن غيرها من التنظيمات أنها هيئة قمع، وأن في يدها الجيوش والسجون والمحاكم والبوليس، فإن هذه الخصيصة لا قيمة لها في مجال العقيدة، بل إن أي زج بها في مجال العقيدة سيلوث العقيدة. فهذه القوى، قوى القمع، لا تغرس فضيلة أو تنمي أيماناً أو تقتلع شهوة فالشهوات في أعماق النفوس تجري من الإنسان مجرى الدم، وإذا أغلقتها الدولة فسيلجأ الناس إلى التحايل، وفي بعض الدول الإسلامية "المغلقة" يسافر الكثيرون إلى أوروبا شهراً أو اثنين كل عام ليرتوا من شهواتها ويعبوا ما يكفيهم جفاف بلدهم من العام إلى العام. ومن لم يستطع السفر فإن التليفزيون يقدم ما يشبعه.

ومن الناحية العملية، فإن الدولة هي أعجز الهيئات والمنظمات في مجال العقيدة والفضيلة. فما قامت العقائد بالسيف ولا تبقى بالسيف، وإنما تقوم بالإيمان، وتزدهر في مناخ الحرية وتبقى وتتأصل في النفوس بحكم صلاحيتها الموضوعية، وأنها تمثل قيم الحب والخير والجمال والعدل والحرية، وقد انتشر الإسلام في بلاد لم تطأها خيول الجيوش الإسلامية، ولكن ارتفعت فيها أعلام الصوفية، أو المعاملات السمحة لتجار.. أكثر مما دخلها بالغزو. وقد انحسر الإسلام عن أسبانيا التي فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير، ولكنه ظل في الملايو وأندونيسيا التي لم تدخلها الجيوش، بل يمكن أن نعود إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية فنقول مع عائشة "فتحت المدينة بالقرآن" وكان هذا هو الفتح الأعظم، ولم يكن بالسيف، ولكن بالقرآن.

(5) هذا ما قاله ربعي بن عامر لرستم عندما سأله "أسيدهم أنت؟"، فقال "كلا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجبر أديانهم على أعلاهم".

وقد يذكر هنا أن مما ضلل بعض الدعوات الإسلامية سوء فهم الأثر "يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" وحملهم له على غير محمله والفهم السليم للإسلام يضع الأثر موضعه ويجعله مخصوصاً بفئات شاذة، شاردة، منحرفة، يكون على الدولة أن تتعامل معهم بوسائلها.

ومن الأسباب التي أدت إلى العجز عن تقديم الرؤية المنشودة للدولة الإسلامية أن بعض الذين قدموا هذه الرؤية كانوا من الفقهاء الذين لم يكن أمامهم مفر من الالتزام بالتصور الفقهي. فهكذا تعلموا وعلى هذا شبوا. وكان البعض الآخر من الضباط والعسكريين الذين هم بحكم تربيتهم العسكرية آخر من يصلح لوضع رؤية الدولة الإسلامية إلا إذا جعلنا الوطن ثكنة، والشعب جيشاً. وفي دول قبلية كانت الوسيلة لتدعيم الدولة الناشئة هي أن يصهر رئيسها إلى القبائل بحيث يوجد نسباً ويضمن ولاء.

أين المفكرون والمثقفون:

لعل جمال الأفغاني كان أقدر الجميع على تقديم الرؤية المثلى، ولكنه - ربما لطبيعته النفسية الثائرة على الظلم - رأى أن عليه أن يهدم قبل أن يبني فشغل نفسه بهدم معاقل الحكم المطلق والاستبداد في مصر، وفارس ورزق حظاً من النجاح، ولكن هذا شغله عن قضية بناء الدولة، ولم يضع تصوره عن الدولة، ولكن يمكن أن نستخلص أفكاره الرئيسية من كتاباته، فهو على نقيض ما ادعى المستشرقون لم يكن يهدف إلى "جامعة إسلامية" أو "خلافة إسلامية" أخرى ولكنه كان يدعو إلى "كومنولث إسلامي" أو حتى غرس الحكم الإسلامي في دولة واحدة تكون البداية وتصور أن السبيل إلى ذلك هي الثورة الشعبية التي تقودها النخبة المؤمنة، وليس ما يقدمه الحكام. وبالنسبة للحكام، فإنه أراد "تاجاً بدون رأس، أو رأساً بدون تاج" أي ملكاً دستورياً يملك ولا يحكم أو رئيس جمهورية لا يدعي الملك أو التاج.

أما محمد عبده فقد تحول من الثورية إلى الإصلاحية في أعقاب فشل ثورة عرابي ولم يدع يشغل نفسه ببناء الدولة، ولكنه بإصلاح الدولة، وربما شغل عن هذه أيضاً بتتقية العقيدة من الغشوات التي زحفت عليها.

وقدم لنا "الكواكبي" صورة لملتقى شعبي للمسلمين في مختلف دول العالم "مؤتمر أم القرى" استعرض وجوه النقض، وكيف يمكن إصلاحها وكان قد ندد في كتابه الأول "طبائع الاستبداد" بالحكم الاستبدادي المطلق، ولكن لم يضع لنا تصوراً محدداً للدولة الإسلامية.

وأعاد حسن البنا الفكرة الجهادية إلى الدولة الإسلامية بعد أن كادت إصلاحية محمد عبده أن تتسيبها وأراد صيغة تجمع بين النهج الديمقراطي والطبيعة الجهادية للدولة الإسلامية. والقضية في حسن البنا هي أن اغتيال المبكر - وبدون انتظار - وهو في قمة العطاء، حال دون أن يقدم إضافته كاملة.

وتوفر للدكتور حسن الترابي عناصر لم تتوفر لغيره فهو أصلاً ابن الإخوان المسلمين، على يديهم

تدرب وفي مدرستهم نشأ. فألم بخبراتهم ثم سار حيث وقفوا ورزق ملكات شخصية، ومواهب ومستوى ثقافي إسلامي وعصري. ولعله يكون أقرب الزعماء الإسلاميين إلى التصور الأمثل للدولة الإسلامية.

وخلال دراستنا للدعوات الإسلامية اكتشفنا أن زعماء الدعوات الإسلامية الذين يتبعهم الجماهير يصبحون هم أنفسهم أتباع الجماهير! بمعنى أن الزعيم الذي يتوصل بحكم الدراسة والتأمل وسعة الإطلاع والمقارنة إلى فكر أكثر تقدمًا من المستوى الذي عليه الجماهير أو الحالة النفسية التي تسمح لهم باستيعابه، يتردد في إعلانه لأن إعلانه سيكون على حساب الطاعة العمياء والتسليم، وقد يفسح مجالاً لأعدائه للكيد والنقد. وقد عزل عمر بن الخطاب بعض ولاته لأنه على ما قال - "كرهت أن أحمل الناس على فضل عقله". وهذا ما يؤدي بنا إلى نتيجة قد تنثير الدهشة، هي أن زعماء الهيئات والدعوات الإسلامية قد لا يكونون أقدر الناس على إعلان الصورة المثلى للدولة الإسلامية لارتباطهم بمستوى جماهيرهم وفهمها التقليدي، وأن الذي يمكن أن يقوم بذلك هم المفكرون. ومرة أخرى أننا قد نجد المفكرين ولكننا نجد لدى معظمهم وشائج تربطهم بالنظام الحاكم أو الهيئات القائمة أو غيرها من الالتزامات التي تحد من حريتهم. وتصل المأساة إلى قمتها. فعندما نجد أخيراً المفكر الحر نجد أنه لا يستطيع توصيل فكرته إلى الرأي العام لأنه مادام حراً فيغلب أن تعزف عنه الهيئات والمؤسسات القائمة، ومن ثم تقيم حوله سداً من التعتيم، ولا يستطيع فكره أن يصل إلى الناس أو أن يمهد الطريق أمام زعماء الهيئات ليجدوا. ونحن من سنة ٤٦ نقول "لا تؤمنوا بالإيمان. ولكن آمنوا بالإنسان"⁽⁶⁾ أو "الإسلام يريد الإنسان بينما يريد الفقهاء الإسلام"⁽⁷⁾ دون أن نجد صدى في حين أن هذه هي أهم مفاتيح التجديد في فهم الإسلام.

لابد من نظرية:

استعرضنا حتى الآن تجارب الدول الإسلامية في العصر الحديث، ورأينا أن من أبرز أسباب فشلها العجز عن تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية للملابسات التي أحاطت بقياداتها. فإذا أردنا أن ننقل من هذا الشق السلبي إلى شق إيجابي، فإن أول خطوة - ولعلها أهم خطوة - هي إرساء نظرية إسلامية عن الدولة.

وقد أشرنا إشارة عابرة في فقرة سابقة إلى أهمية النظرية: والأمر يتطلب - فيما نرى - مزيداً من الإيضاح.

فالنظرية هي مجموعة المبادئ والقواعد والتوجيهات التي تنبثق من أصل واحد. ويتوفر لها بحكم هذا الأصل الواحد التماسق والانسجام، ويستبعد منها التضارب والتناقض والتلفيق، وعادة ما تكون من إبداع عبقرى يرى مالا يراه معاصروه، ويصل إلى ما لم يصلوا إليه، ويستطيع أن يجمع السابقين عليه والمعاصرين له في صياغة واحدة محكمة، ثم يضاف إليه - مع الزمن - أرتال من المفكرين.

خذ مثلاً النظرية الاشتراكية على اختلاف أطرافها - فقد كان لها دعاء مع بدايات القرن التاسع عشر،

(6) انظر فصل "فهم جديد للدين" من كتاب ديمقراطية جديدة للكاتب وقد صدر سنة ١٩٤٦ ص ٥٢.

(7) انظر باب "عندما تتصافح البدان" من كتاب "كلا ثم كلا" للمؤلف - ١٩٩٤ ص ٢٤٩.

مثل روبرت أوين وبرودون وفوريه وبلانكيه.. إلخ، ثم ظهر ماركس وانجلز وعاصره في ألمانيا لاسال ولينبخت وبيبل وكاوتسكي وبرنشتين وجاء بعدهم روزا لوكسمبرج وكلازاتكن، وظهر في روسيا القصية بليخانوف - أول من نقل أعمال ماركس إلى الروسية، وأكسلرود، ثم مارتوف ولينين وتروتسكي - وقبلهما - باكونين وكروبتكين وبعدهما بخارين ومدام كولونتا. وفي إنجلترا ظهر كيرهاردي ووليم مورس ومعهم سيدني وبياترس وب وكول. وفي فرنسا ظهر جوريس وجيزده وفي إيطاليا توراني وانجليكا بالابنونا وفي بلجيكا والنمسا فاندروفيلد وادلر، وفي الولايات المتحدة دانيال دي ليون..

وكل واحد من هؤلاء الذين ذكرناهم من باب المثال لا من باب الحصر، مفكر، ومؤلف ومجتهد أو قل هو شيخ مدرسة داخل الإطار العريض للاشتراكية وله العديد من المؤلفات والمراجع والعديد من الدعاة والمريدين، ولا يقتصر الأمر على هؤلاء إذ يوجد بجانبهم كتبية من الفنانين والأدباء والشعراء الذين غطوا الساحة الأوروبية والأمريكية بالكتابات الاشتراكية بحيث تأثر المجتمع الحديث كله بدرجات متفاوتة بفكر اشتراكي.

وجاوزت الاشتراكية الحدود الأوروبية حتى وصلت إلى آسيا وأفريقية فظهر ماوتس تونج ونهرو وهوشي منه وقضت على المشاعر "الشفونية" فعندما كانت الحرب مشتتة ما بين اليابان وروسيا (١٩٠٤ / ١٩٠٥) وقف كاثامي مندوب اليابان يصافح بليخانوف مندوب روسيا على منصة مؤتمر الدولية الثانية (امستردام ١٩٠٤)^(٨).

وخذ الرأسمالية. ففي فرنسا كان لها كيناي، ثم ظهر آدم سميث وعرضها في كتاب ثروة الأمم ١٧٦٦ عرضاً سائغاً دلل فيه على حسنات حرية العمل، وسوءات أي تقييد أو تدخل، وأبرز آليات السوق وكيف تعمل ثم تناول الرأسمالية ريكاردو، وميل وبنثام وغيرهم في بريطانيا، وعشرات أو قل مئات الكُتاب والاقتصاديين في ألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة إلخ.

وجاء السياسيون، فأقاموا الديمقراطية على الأسس الرأسمالية نفسها "الحربة" ونقلوها من المجال الاقتصادي إلى المجال السياسي حيث يحل "الحكم" محل "وازع الربح" والأحزاب محل الشركات... إلخ. فإذا أريد قيام دولة إسلامية، فلا بد من نظرية إسلامية تقوم عليها الدولة وتعمل باستلهاها وفي ضوءها.

إننا لا نكاد نعثر - فيما بين يدينا - على تنظير بمعنى الكلمة، وإنما نجد تليقاً يجمع بين أفضل ما في الرأسمالية والاشتراكية ويوظف أصحابه عددًا من الآيات والأحاديث لمساندتهم. التليق لا يجدي، ومحكوم عليه بالفشل، لأنه محاولة للجمع بين الأضداد.

والمبادئ المجردة أيضًا لا تجدي. فمثلاً ما معنى "إقامة ديمقراطية سليمة" التي جاءت ضمن المبادئ الستة لحركة ٢٣ يوليو سنة ٥٢ في مصر. كيف يمكن إقامة هذه الديمقراطية وما هي هذه الديمقراطية. هل

(٨) انظر كتابنا لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية المصرية عقيدة ص ٢٠.

هي الديمقراطية الشعبية التي تدعيها النظم الاشتراكية أو هي الديمقراطية البرلمانية التي توجد في الدول الرأسمالية وما هو الموقف من الأحزاب. ومن طريقة الانتخابات وسلطة المجلس.. إلخ. إن جملة "إقامة ديمقراطية سليمة" لا تهدينا في هذا كله، ويمكن أن تقوم المعارك حولها وأن يدعيها أهل اليسار وأهل اليمين معاً.. لأنه مبدأ مجرد.

ما يمكن أن يسمح به هو أن نظرية إسلامية لا بد وأن تختلف عن نظرية ماركسية أو رأسمالية إلخ.. ليس فحسب في اتجاهاتها ولكن في بنائها نفسه. فكل النظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وضعتها أوروبا، وضعتها بتجاهل "الله"، وفي ظل هذا التجاهل أخذت تترج وتترج وأخذ الفكر ينطلق يمينا ويسارا، يقيم الأبنية ويفرض الفروض ويتقصى الوقائع ويربط بين الأسباب والمسببات.. إلخ، مقيماً كل شيء على الواقع، مستبعداً تماماً كل ما تثيره القيم والمثل. فإذا أريد إقامة نظرية إسلامية. فيفترض أن يختلف الأمر. وكما أن منظري الاشتراكية يستشهدون بأقوال ماركس وإنجلز ولا يعاب عليهم هذا، فإن النظرية الإسلامية لا بد وأن تعتمد على شواهد من القرآن والحديث، ولا بد أن يكون "الإيمان بالله" في عمقها وصدارتها، وإلا فإنها لا تكون "إسلامية" ولا ينفي هذا أن تستخدم النظر العقلي والبحث العلمي في الإطار الواسع للإيمان الإسلامي. ومن واجب الباحث المسلم أن يرفض تماماً أي مبدأ أو حكم يخالف العقل مخالفة صريحة، لأن الإسلام نفسه يأمر بذلك.

ولا يعيب النظرية الإسلامية أن تكون إسلامية أو أن ترصع فصولها بآيات وأحاديث فالإسلام لا يقل عن الاشتراكية أو غيرها وما يعيب النظرية الإسلامية هو أن تكون مهوشة أو تقوم على مفاهيم تراثية، لأن النظرية الإسلامية يفترض أن ترتكز على القرآن نفسه، وأن يكون القرآن - وليس السنة - هو الأساس، وإنما أوتي المفكرون الإسلاميون من ناحية أنهم اعتمدوا على السنة بالدرجة الأولى، ثم على الأحكام السلفية التي خضعت لمناخ عصرها.

وأصطحب التعلق بفكر الأسلاف والجري وراء حكم أحد الأئمة بالعزوف عن الثقافات الحديثة بفكرة أنها ليست "إسلامية" وفات المفكرين الإسلاميين المعاصرين أن القرآن والحديث يأمران بالتماس الحكمة حيثما كانت، وطلبها "ولو في الصين" والمفروض مع هذا الأمر أن يحرص المفكر المسلم - وهو يضع نظرية إسلامية للدولة - أن يلم بكل النظم السياسية، بدءاً من قدماء المصريين حتى النظم السياسية المعاصرة. وعليه أن يعلم أنه وهو يقوم بذلك إنما يطبق التزاماً إسلامياً وعندما يقول القرآن "إن الدين عند الله الإسلام" فذلك لأن الإسلام يستوعب كل الأديان وعندما نؤمن بأن الرسول هو آخر الرسل، فإننا نحتوي كل الرسل السابقين بل لعلنا نكون أقرب إلى بعضهم من أتباعه مصداق ما قال الرسول عن موسى "نحن أولى به منهم".

فهذا الفهم الذي يتفق مع أصول الإسلام وأوامره هو الذي يكفل لنا الإلمام - أو قل الإحكام - بكافة النظم السياسية وأبعادها وقضاياها، وهو الذي يخلصنا من المأزق الذي وقع فيه بعض المفكرين الإسلاميين

الذين لم يفهموا "العلم قال الله قال رسوله.."⁽⁹⁾. فإن الله والرسول أمرا وأكدا السعي وراء الحكمة والحرص على المعرفة والسير في الأرض وتعرف أخبار السابقين.

يفترض أذن في النظرية الإسلامية عن الدولة أن تقوم على نصوص من القرآن الكريم بالدرجة الأولى، وأن يتوفر لها إحكام البنين النظري، بمعنى أن لا تكون ذات طابع تلفيقي أو تراكمي، وأنها وإن اختلفت في البنين والاستدلال عن النظرية الأوروبية، فإنها لا تتناقض معها ضرورة. لأن قاسمًا مشتركًا يجمع بينهما هو العقلانية. والاختلاف هو أن عقلانية الإسلام تمتد إلى ما بعد الحياة الدنيا، بينما تقف العقلانية الأوروبية عند الحياة الدنيا، وأن العقلانية الإسلامية ذات صيغة خيرة في حين أن العقلانية الأوروبية محايدة، ليس لها لون وقد تستخدم في الخير، كما تستخدم في الشر.

وهناك بالطبع كتابات عديدة عن الدولة الإسلامية وبعضها ثمين ونفيس، سواء كانت هذه الكتابات تأريخًا أو عرضًا أو نقدًا.

ولكننا قد لا نجد "نظرية إسلامية للدولة".

في كتابنا "رسالة إلى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامي"⁽¹⁰⁾. عرضنا نظرية دعوة العمل الإسلامي التي تقدم رؤية الإسلام للحياة - ومن ثم للدولة والمجتمع الإسلامي - آخذة نقطة الانطلاق من الاستخلاف الإلهي للإنسان، كما جاءت به آيات سورة البقرة (٣٠ - ٣٧) وغيرها، فقد شاء الله تعالى أن يجعل آدم خليفة في الأرض وهذه الواقعة تتضمن مبدئين: الأول كرامة الإنسان، فما كان الله تعالى يضيف على الإنسان كرامة أعظم من أن يجعله خليفته على الأرض، وعلى هذا يفترض في الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي أن تكون كرامة الإنسان بارزة ومحقة في كافة المجالات وهذا أمر لا نكاد نجد له أثرًا في تجارب الدولة الإسلامية في العصر الحديث التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذا البحث. والمبدأ الثاني الذي تتضمنه واقعة استخلاف آدم هو العمل، لأن مضمون الاستخلاف هو استعمار الأرض وأحياء مواتها واستخدام مواردها.. إلخ. وتوضح الآيات السبب الذي جعل الله تعالى يستخلف آدم. وليس الملائكة. إن السبب هو أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها أي أعطاه مفاتيح المعرفة والعلوم ولم يفعل ذلك للملائكة فأصبح آدم يعلم ما لا يعلمون، وأمر الله تعالى الملائكة بأن يسجدوا لآدم لهذا السبب. هذه الواقعة تدل على قداسة العلم والمعرفة وأن رفعة الإنسان ترتبط بها، وكأن سجود الملائكة لما علم آدم وجهلوه تصوير لاستسلام قوى الطبيعة، وطاقتها لعلم الإنسان. وفي سياق متصل ومباشر تظهر الآية رفض إبليس السجود لآدم لظنه أنه أفضل من آدم "خلقنتي من نار وخلقته من طين" وأن الله تعالى عاقبه بالطرد فطرد من الجنة ونزل إلى الأرض مع آدم ليكون عدوًا لهو يظهر كقوة تمثل الشر. وقد سمح الله تعالى بوجوده، بل وباستخدامه لقواه العديدة: لإغواء الإنسان، ولكن الله تعالى سلح الإنسان بالعقل وبالدين. وأصبحت الحياة صراعًا بين الخير والشر، بين الأديان والشيطان. ولا يكون لهذا الصراع من معنى إلا عند توفر حرية

(9) شعار السلفيين ونظرتهم إلى العلم.

الاختيار للإنسان، ﴿نَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٧-١٠] ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ٨-١٠].

وقد يسخر مفكر "علماني" من فكرة الاستخلاف ويرى أنها فرض لا أصل له، لأنه لا يؤمن بالوحي، ونحن نقول له إن مضمون الاستخلاف يتفق مع مضمون التطور والانتخاب الطبيعي الذي جاء به داروين والصراع الجدلي الذي قام عليه فكر هيجل وماركس لأنهما معاً (فكرة الاستخلاف وفكرة التطور والصراع) ينتهيان إلى سيادة الإنسان بحكم ملكاته ومواهبه، واستطاعته تسخير طاقات الطبيعة، وهو ما يقوله القرآن بلغة الخطاب الديني الذي يختلف عن لغة الخطاب العلمي ولكنه ينتهي إلى النتيجة نفسها. وقد تختلف أدوات البحث في الدين عنها في العلم ولكنها لا تنتهي إلى نتائج تضاد ما يمكن أن يصل إليه العلم اليقيني.

وقد يسأل سائل، ولماذا هذا كله؟ والرد لكيلا تكون الحياة تجربة بلهاء، وليوجد بين الملائكة التي تمثل البراءة، والشيطان الذي يمثل الشر كائناً يستطيع أن يختار طريقة وأن يؤثر الخير على الشر، ويقاوم الأعداء ويصمد للإرهاب.. إلخ. وبهذا يصبح لحياته مبرر، كما يوجد معنى للحياة نفسها.

وما يعنينا فيما نحن بصدده هو الحرية، وإنها مقوم من مقومات الحياة والمجتمع والدولة في التصوير الإسلامي.

وبهذا نخلص إلى دولة قائمة على الاستخلاف الإلهي للإنسان، ومنبثقة من طبيعة التصوير القرآني للحياة الإنسانية، ومقوماتها هي كرامة الإنسان والعمل والعلم والحرية ينظمها وينسق بينها العدل.

وقد يوجه نقد كثير لهذه النظرية، ولكنه لا يدخل فيه أن هذه المقومات ليست من الإسلام، إنها منقولة نقلاً عن الآيات القرآنية، وما قدمناه هو تفسير لها. كما لا يمس أي نقد أنها في مجموعها أصلح ما يمكن أن تقوم عليه دولة، وأنها قامت بالفعل في دولة النبوة ودولة الخلافة.

تحديات أمام الدولة الإسلامية:

إذا رفض تصور دعوة العمل الإسلامي الذي قدمنا آنفاً فسيكون على دعاة الدولة الإسلامية مجابهة هذه التحديات:

١- كرامة الإنسان:

هذه قضية أنسييت تماماً في معظم الكتابات عن الدولة الإسلامية، وأحل محلها "العبودية لله" كما أنسييت عملياً في تجارب الدول الإسلامية الحديثة فالمواطن المسلم يكاد يكون "شيئاً" بل ويكاد يكون أرخص الأشياء. ولا داعي للمماحكة فهذه هي الحقيقة المؤلمة الواقعة. ولا بد أن تتغير هذه الصورة، فتقوم الدولة الإسلامية على أساس كرامة الإنسان التي قررها الإسلام عندما جعل الله تعالى الإنسان خليفته على الأرض، ولا بد أن

(10) أصدرته للمؤلف دار الفكر الإسلامي بالقاهرة - ١٩٩٢.

يتم هذا عملياً، وأن يضم "جسم" الإنسان الذي يجب أن يحفظ من الأذى و "نفس" الإنسان وفكره وضميره⁽¹¹⁾. ويمكن للدولة الإسلامية أن تسترشد بتطبيقات هذا المقوم في الدول الأوروبية. والنقص الرئيسي في هذه التطبيقات هو أنها ليست "موضوعية" بحيث تنطبق على الجميع إذ يغلب أن يتمتع بها تماماً مواطنو الدولة، وتنقص بالنسبة للآخرين.

٢ - قضية الحرية:

لا نجد في الكتابات الإسلامية تأصيلاً لمفهوم الحرية. ولما كان الفهم - السلفي - التقليدي - هو السائد فمن الطبيعي أن يكون هناك عزوف عن الحرية، وأنها باب البدع والأهواء. وما يتردد في الكتابات الإسلامية الحديثة عن الحرية يجب أن يؤخذ بحذر، إذ أغلب الظن أن المقصود به "حريتهم" وليس حرية الآخرين. وقد امتحن الفكر الإسلامي في قضية الردة، كرمز لحرية الاعتقاد فسقط سقوطاً شنيعاً، وكرر ما قاله السلف..

ومن المعلوم ضرورة جدد...

من ديننا يقتل كفراً، ليس حد!!

ولعل الوحيد الذي يمكن استثناءه من هذا هو "الغنوشي" الذي نجد في كتاباته إيماناً بالحرية بالدرجة المطلوبة. وقد تساورنا الشكوك في مدى صدقها الموضوعي. لأن بعض مواقف كاتبها قد تتعارض مع مضمونها. ولكن من حقه أن نذكر له ما سجله عن الحرية.

لقد آن للمفكرين الإسلاميين أن يعلموا أن أفكارهم عن تقييد حرية الفكر - كائنة ما كانت - تخالف - فيما نرى - مخالفة تامة صريح القرآن. وأنهم إذا تمسكوا بها فسيجنون على الدولة الإسلامية المنشودة، لأن أي نظام يراد له البقاء، لا بد وأن يتقبل الحرية. وقد كان نقص الحرية هو السبب الرئيسي لانتهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان لديه كل شيء - إلا ها.

ويدخل في مضمون الحرية، حرية الفكر والاعتقاد وطبع الكتب وإصدار الصحف وتأليف الأحزاب والنقابات والجمعيات والنوادي وحرية الاجتماعات العامة والمعارضة السياسية. ويجب أن لا يفتات القانون بحجة التنظيم على جوهر هذه الحريات.

٣ - العدل:

إن ضمور الإحساس بالعدل وضحاكته في الفكر السياسي الإسلامي، وفي تطبيق تجارب الدولة الإسلامية - هو من الظواهر التي تستلفت الانتباه. لأن العدل هو رمز الإسلام، والمفروض أن يكون المسلمون هم أول الدعاة للعدل. وقد نهض الإسلام أول مرة بفضل إيمان "المستضعفين" ولا نرى مبرراً لا

(11) لقد عالجتنا مضمون كرامة الإنسان في كتابنا رسالة إلى الدعوات الإسلامية، بشيء من التفصيل [ص ٢٦٤ - ص ٢٧٠]. وطبع في رسالة خاصة حملت اسم "ركائز الأصولية الإسلامية".

ننقص دور العدل - أو حتى إغفاله - في الدولة الإسلامية إلا الطبيعة البرجوازية لمعظم الدعاة الإسلاميين التي تتأى بهم عن قضية العدل.

ويفترض أن يكون العدل أصلاً في قيام الدولة ووضع القوانين والفصل بين فئات الشعب بحيث يحمي الضعفاء والفقراء والمحكومين من عدوان الأثرياء والأغنياء والحاكمين، وأي قرار أو حكم يجافي العدل، يعد هذا طعناً في "أصوليته" يستوجب نقضه.

٤ - المرأة:

ما من مجال تحكمت فيه التقاليد باسم الإسلام، كالمرأة. فقد استغلت بعض التوجهات العامة عن الزي والآداب والزينة لإقامة سجن للنساء ولإبعادهن عن الحياة العامة وحرمانهن من التعليم والعمل، فضلاً عن الاختلاط بالرجال. وامتزجت التقاليد الموروثة - بالميل "الرجالية".

ولا جدال في أن المرأة في الدعوات الإسلامية المعاصرة تتخلف عما كانت عليه أيام الرسول فهي لا تغطي المساجد لأداء الصلوات والأعياد، ولا تشترك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما أراد لها الله. ولا تظهر زينتها للفئات الاثني عشرة التي عددها القرآن، وقد لا تمنح نصيبها الشرعي من الميراث. وقد حضرنا ندوات في الولايات المتحدة، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وسويسرا عزل فيها النساء عن الرجال، أو أقصين إلى مكان بعيد تصلهن بالمحاضرة دوائر تليفزيونية. وقد كان النساء يشهدن الصلوات في المسجد، ويتحدثن إلى الرسول، ويتحدث إليهن الرسول وكانت المرأة ترد على عمر بن الخطاب فلا يملك إلا التسليم لها.

ولكن شيئاً من هذا لا يرد في الممارسات الحديثة للدعوة الإسلامية. وقد تحكمت عوامل "سيكولوجية" وتقليدية بحيث أصبحت قضية المرأة إحدى "عقد" الدعوات الإسلامية، وأصبح الحجاب رمزاً للإسلام!

لقد تحدث القرآن عن الآداب العامة حديثاً يعم الرجال والنساء ونهى النساء أن يكشفن عن صدورهن أو أن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وهي توجيهات توحى الحشمة، قدر ما توحى بأنها قدمت لزي معين وعادات معينة. ومعلوم أن قضايا الزي والأكل والشرب والعادات في العلاقات الاجتماعية.. إلخ. لا تدخل في باب العقيدة، وإنما تخضع لمضمون "العرف" الذي اعترف به القرآن عندما نص على "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

فدائرة الزي تخضع للعرف الذي يتغير بطبيعته مع تغير الأذواق والمفاهيم. أما دائرة الحقوق والواجبات فقد سوى فيها القرآن بين الرجال والنساء بأية صادقة ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة ٢٨] ومعروف أن هذه الدرجة هي درجة القوامة المنزلية التي لا علاقة لها بالحقوق والواجبات العامة التي تحكمها آية المساواة.

ولا يخالجننا شك في أن هذا الحديث المتكرر عن الحجاب والأهمية المزعومة التي تعطي له (12) هي من باب الطفولية الفكرية والتشنج الذهني وأنها من أكبر عوامل تخلف المجتمع الإسلامي وتشويه صورته.

٥- الفنون والآداب:

لم يستطع الفكر الإسلامي أن يحدد موقف الدولة الإسلامية من الفنون والآداب. فقد سبق إلى الأذهان أن هذه الفنون والآداب [سينما - مسرح - تليفزيون.. إلخ] تفتح الباب أمام إشاعة الفحشاء والمنكر واستثارة الشهوات. وارتوي أن الموقف "الطبيعي" هو إغلاق هذا الباب ومن ذا يمكن أن يدافع عن إباحة الفحشاء في دول إسلامية؟؟.

الأمر أكثر تعقيداً، وله من الأبعاد والجوانب ما يصبح معه التصور السابق تصوراً ناقصاً.. فحتى عندما نسلم بأن بعض الفنون والآداب قد تثير الشهوات، فإن هذا لا يتطلب بالضرورة إغلاق باب هذه الفنون، لأن هذا الإغلاق قد يؤدي إلى مفسد أكبر مما كانت موجودة قبله.

وقد يمكن للمفكرين الإسلاميين أن يستلهموا الصورة التي عرضها القرآن الكريم، وأشرنا إليها للإبقاء على إبليس والإذن له في فتنة الإنسان وإغوائه حتى يوم الدين - ليعرفوا أن المجتمع الإنساني ليس هو الذي تنتفي منه أسباب الغواية، ولكنه الذي تنتصر فيه الهداية على الغواية، الإرادة على الهوى، ولكي يتحقق هذا يصبح وجود هذه الغواية أمراً لازماً.

كما سيجدون الحل في الوسيلة التي وضعها القرآن وهي "المقاصة" "واتبع السيئة الحسنة تمحها" "إن الحسنات يذهبن السيئات" وعفو الله تعالى عن "اللمم" على اختلاف في التفسير تقسح مجالاً كبيراً للتأويل، والقاعدة التي وضعها الرسول.. "ساعة... وساعة".

وهذه كلها "مؤشرات" تفترض وجود أسباب الغواية الصريحة - إن لم تتطلبها - وتحدد الموقف تجاهها، وليس هو المنع، ولكن المجاهدة "ليميز الله الخبيث من الطيب" فالأمر أذن أهون مما يتصورون.

وعلى كل حال فيمكن للدولة أن تكل كل ما يتعلق بالفنون والآداب التي يظن أنها من أسباب الغواية والشهوات إلى الهيئات المدنية (مجلس محلي - بلدية.. إلخ) بحيث تنفض اليدين منه، وهو أسلوب موجود في كثير من الدول حيث نجد الإذاعة والتليفزيون إما في يد شركات تجارية أو هيئات مدنية. وأهمية هذا التحول من الزاوية الإسلامية أن الشريعة تفرق بين ما يحدث بين الناس، وما يرفع إلى السلطان. والحديث معروف "تعافوا الحدود فما بلغني فقد وجب". وهناك شواهد أخرى عديدة تدع الحكم على التصرفات بين الناس إما إليهم، وإما إلى الله تعالى، ما لم ترفع للحكومة.

(12) في بعض الحالات - كما في كفاح الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي - أخذ الحجاب صفة رمزية وأصبح كما لو كان علامة من علامات الكفاح. ويفترض بالطبع أن تنتهي هذه الصفة مع انتهاء معركة التحرير.

أما فكرة مصادرة الفنون بحجة إثارته للشهوات، أو حتى البحث عن فنون بديلة لا يوجد فيها عنصر الإثارة، فأمر غير مجدٍ. ففي حال المصادرة سيبحث الناس عن وسائل بديلة. وفي حالة الفنون التي تخلو من عناصر الإثارة، فإن الناس ببساطة ستتجاهلها لأنهم يستطيعون أن يجدوها أفضل في الكتب. ولديهم القرآن الكريم الذي يمثل قمة الإعجاز الفني والأدبي، ولكن البشرية لا تعيش على طعام واحد ولا هي تخلص من تجاذب الشهوات "وخلق الإنسان ضعيفاً".

تطبيق الشريعة:

تطبيق الشريعة من التحديات التي رزقت شهرة كبيرة حتى أصبحت كأنها رمز الدولة الإسلامية. والشريعة - كما نراها - هي جماع القانون فيدخل فيها القانون الدستوري وما يتفرع عنه من نظم الحكم والسلطة والسياسة، ويدخل فيها القانون الاقتصادي الذي ينظم المعاملات المالية والاقتصادية والإنتاجية ويدخل فيها القانون المدني الذي ينظم التصرفات المدنية على اختلافها ويدخل فيها أخيراً القانون الجنائي. والقانون الجنائي في الشريعة الإسلامية ينقسم إلى قسمين؛ القسم الأعظم يطلق عليه "التعزير" وهي عقوبات ترك للقاضي حرية التوصل إليها. والقسم الأصغر وهو عقوبات نص عليها بالفعل في القرآن الكريم، وفي بعض الحالات، في السنة ومن ثم يطلق عليها "الحدود" أو العقوبات المقدرة.

فالشريعة مجال كبير لا يمثل القانون الجنائي إلا جزءاً صغيراً منه ولا تمثل الحدود إلا جزءاً صغيراً من هذا الجزء الصغير، ومن ثم فإن هذا الدوي الذي تثيره الحدود لا يتناسب مع حقيقتها، وقد أخذ، مع المرأة والفنون، طابعاً نفسياً مزاجياً تعصبياً جعلها "شعارات" أكثر منها حقائق، ويعطيها طابع "التشويش" أن لم يكن "التوثن".

وداخل الحدود نفسها هناك اجتهاد، فقد يرى البعض أن ليس لشرب الخمر حد، فلا يوجد في القرآن أو السنة ذلك. وقد وضع الحد في عهد عمر والحدود كما قلنا "مقدرة"، وقد استبعدنا كل ما قاله الفقهاء عن "حد الردة" إذا أريد بها ردة فكرية لأنها تتعارض مع الآيات العديدة التي تؤكد حرية الاعتقاد في القرآن الكريم.

أما عقوبة الزنا، فإن الرجم مطبق بمقتضى السنة على أن اشتراط رؤية أربعة للفعل بصورة صريحة بحيث إذا لم يتحقق هذا لدى واحد من الأربعة عوقب الثلاثة بعقوبة القذف، ومحاولة المحقق ثني المعترف عن اعترافه بكل الطرق (وهذا شيء لم يسمع به في أي قانون أو تشريع قبل الإسلام) من ناحية أخرى - هذان يجعلان هذا الحد شبه معطل، لا يطبق إلا على مثل ما عزر الذي يأبى إلا أن يطهره الحد، ويرفض كل محاولات ثنيه عن ذلك. ولعل هذا هو السبب في أنهم ينالون الجنة.

النص الحقيقي الذي يعد أكثر النصوص ثبوتاً وصراحة هو نص السرقة. وقد جاء النص في القرآن بتعبير "والسارق والسارقة" ولاحظ بعض المعاصرين أن هذا التعبير قد لا يطلق على من يسرق مرة، وإنما يطلق عادة على من أُلِف السرقة حتى أصبح سارقاً⁽¹³⁾. وهو اجتهاد سائغ فيما نرى وأن لم يطرأ للسابقين

(13) ويقاس على النص تعبير القرآن: والزانية والزاني.

ولا حتى للرسول نفسه. ولكن هذه الحقيقة لا تطعن في السلامة الموضوعية لهذه الشبهة، وإنما هي تثبت شيئاً من أعجاز القرآن، وأن استخدامه على وجه التعيين - لصيغة ما إنما يعود لاحتمال قبول هذه الصيغة لتأويل آخر قد تمس إليه الحاجة في وقت ما، أو في ظرف ما. والذي أؤمن به واعتقد أنه يتفق مع روح الإسلام هو أن لا يطبق هذا الحد على كل سرقة أولى، وإنما ينظر فإذا كان فيها ملابسات تدعو إلى التغليب فيمكن تطبيقه وإلا فيمكن درئه بشبهة التعبير. على أساس تطبيقه إذا انتفت الشبهة، بأن عاد إلى السرقة وأصبح سارقاً.

ونحن نؤمن أن فلسفة العقوبة في الإسلام أفضل من فلسفتها في القوانين الوضعية من كافة النواحي فهي شخصية، بمعنى أنها توقع على شخص الجاني، وهي رادعة بمعنى أنها تردع الآخرين وهي ناجزة ومباشرة. ولئن مست كرامة الفرد فالبادئ أظلم أما قسوتها فلعلها أرحم من السجن الطويل وتقييد الحرية وتعطيل الغريزة.. إلخ.

ويمكن إنشاء محاكم صلح تطبق مبدأ تعافوا الحدود فيما بين الناس قبل أن تصل إلى السلطان.

وكما قلنا في مستهل الفصل، فإن الشريعة مجال كبير جداً، ومن الظلم الشديد أن يرمز لها "بالحدود" كما أن من الظلم للحدود أن ينظر إليها النظرة السلفية التقليدية الضيقة. ولو طبقت الشريعة حقاً لما كان هناك حاجة للحدود [إلا على سبيل الاستثناء وبالنسبة لحالات فردية وشاذة] لأن قوام الشريعة هو العدل. وإذا تحقق العدل انحسرت إلى حد كبير شأفة الجريمة..

كلمة أخيرة:

إن فشل تجارب إقامة دولة إسلامية في العصر الحديث يثبت أن موضوع الدولة أعظم بكثير مما تصور معظم المفكرين الإسلاميين وأن من الخطأ الفاحش الظن أن تعبيرات مثل "الحاكمة الإلهية" أو "الجهاد"... إلخ، تحل المشكلة إنها يمكن أن توجد حكومة لقبيلة بدائية تسلط السيف على المخالف وتبقر بطن زوجته بحجة " لا حكم إلا الله"! كما لا يكفي مطلقاً ما جاء به ابن تيمية في السياسة الشرعية. والماوردي في "الأحكام السلطانية" فهذه كلها إنما تمثل رؤية لمناخ معين انتهى وطويت صفحاته وقد نجد فيها بعض اللمحات، ولكنها كما قلنا لا تصلح أساساً ولا تكون كافية.

إن الدولة في العصر الحديث تنظيم معقد جداً وصعب للغاية، وعلى من يتصدى له أن يلم تماماً بكافة أبعاده وأن يستفيد في هذا الموضوع بعلوم الاجتماع والسياسة التي تعالج "السنن" التي يقوم عليها المجتمع الإنساني وأن يدرس النظم السياسية القديمة من قداماء المصريين حتى الدستور الأمريكي. وأهم من هذا كله فهم "روح" الإسلام وقيمه الأساسية..

إن الأهمية الخاصة للدولة الإسلامية متأتية من أنها الدولة التي تستلهم قيمتها من الله والرسول، وبالتالي يفترض أن تحقق الحب والخير والعدل والجمال وأن تبتأ من كل لوثات حكم الطغاة الذين استعبدوا الناس واستحلوا الحرمات وفي الوقت نفسه، فإنها كدولة لا تستطيع أن تحقق هذا كدولة قمع، وسلطة، ولكن كدولة رعاية وتوجيه تحمل "الكتاب والميزان" أي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة من ناحية وتحقيق العدالة من ناحية أخرى.

وعندما تظهر الدولة التي تحقق العدل في الاقتصاد، والحرية في الفكر، والإيمان بالله كأصل للقيم العظمى التي تضبط السلوك، والعلم كوسيلة للتعرف على الحقيقة، وتكون علاقة الحاكم فيها بالأمة كعلاقة العامل بالمؤسسة التي يعمل بها - وتتقي منها كل صور الطغيان والاستغلال، ويحس الشعب بالعزة والكرامة (14).

عندئذ نقول: "ها هي الدولة الإسلامية".

وإلا فلا...

(14) نوجه الأنظار إلى أن هذا كله من صميم القرآن والسنة، وليس مستعاراً من الفكر الأوروبي الحديث، وأن كان الفكر الأوروبي قد جلاه بما أوتي من قدرات. وعلى كل حال فلسنا مصابين بدونية تجعلنا نتوقع، أو نعادي كل فكر آخر. فالأصل أن الحقيقة واحدة والأديان واحدة.

إخواني - الإخوان ...

وجدت نفسي منساقاً لأن أكتب هذه الكلمات...

هل السبب هو الغبار الكثيف الذي يثيره البعض حول الإخوان لإخفاء حقيقتهم؟ أو تلك الحملة الضاربة، والتيار المتدفق من الادعاءات الباطلة من أفراد وضعوا في زمن "حزمني يا بابا" و"تكسب يا خيشة"! على مقاعد الإعلام العالية، وأخذوا يسودون السطور، ويعلنون الأكاذيب، ويكررون الزيوف والشبهات، وينقلون إلى الناس رؤيتهم عن التاريخ التي أخذوها من مسلسلات جعلت الراقصات بطلات، والكباريات ساحات كفاح، وغرست في المجتمع المصري صوراً وشخصيات لم يكن له بها عهد كالقوة التي تكون مابين "الغرزة" والكباريه والمعلم والمعلمة واللعب التي تعمل لخداع الأزواج وخراب بيوتهم.. ناهيك بمناظر الشراب وسخريتهم بالمأذون، وإمام المسجد..

هل السبب هو أن هذه الهيئة الشعبية الكبيرة العريقة، لا تجد وسيلة تدافع بها عن نفسها، بينما تدق الطبول وتتعالى الأبواق وتدوي وسائل الإعلام بكلام حزب دَعِي لقيط لا يضم إلا أصحاب المصالح وأبناء الأكابر، وليس له من كفاح إلا كفاح "الهير" واستغلال النفوذ ووضع الأيدي على الأراضي، واستقضاء العمولات واستيراد الأغذية الفاسدة، وتميرير القوانين التي تكبل الشعب من قانون الطوارئ حتى قانون تعيين العمدة وعمداء الكليات وقوانين النقابات والضرائب والتمغات؟

هل السبب هو تلك العلاقة الشخصية بيني وبين الإخوان منذ أن نشأت الإخوان وأمضت سنواتها الأولى في بيت الأسرة، فتعرفت على الرعيل الأول ونشأت علاقات شخصية اقترن بها قدر من التحفظ.. كنت أصارح به أمام الشهيد رحمه الله، كما كنت أكتب به إلى من عرفت ممن تولوا منصب الإرشاد - كالشيخ الباقوري والأستاذ عمر التلمساني رحمهما الله، والأستاذ أبو النصر متعه الله بالصحة والعافية وكانوا جميعاً يتلقون هذه الملاحظات بتقدير، حتى وإن لم يعملوا بها...

قد يكون هذا كله من الأسباب التي دفعنتي للكتابة عن الإخوان، وشبح محنة جديدة تظللهم، ولكن أهم منها جميعاً، أنني استكشفت أخيراً، وخلال دراساتي السياسية قسمة جديدة للإخوان تجعل لهم أهمية خاصة بين الهيئات، لم تحظ بالمعرفة، حتى من الإخوان أنفسهم، ومن ثم يتعين إعلانها..

سواء رضينا، أو كرهنا، فإن هيئة الإخوان المسلمين تمثل ظاهرة في المجتمع المصري نادرة المثال... فبقدر ما يهال عليها من ادعاءات، وبقدر ما تحاول الحكومات - من فاروق حتى مبارك - الحجر عليها وتحريمها، وبقدر ما أوقعه عبد الناصر بأعضائها في سجون ومعتقلاته من أهوال تنفطر لها القلوب وتجعل الشبان شبيهاً، بقدر ما تزداد قوة.. وفي سجون عبد الناصر نفسه تحول "جيل الثورة" إلى جيل الإخوان!

وقد بدأت الصحف أخيراً ترفق ذكر الإخوان بوصف "المحظورة! فأعادت إلى الأذهان ذكر "المزعومة" التي كانت الصحف تفرنها دائماً بإسرائيل طوال الأربعينيات...

كيف تكون الإخوان محظورة، وقائد حركة يوليو أفرج عن أعضائها، ثم ذهب يزور مرشدها في بيته ويلتمس تأييده؟!

كيف تكون محظورة وقد كان لها في مجلس الشعب أكثر من ثلاثين نائباً... ولولا التزوير لوصل عددهم في المجلس إلى المائة؟

كيف تكون محظورة وهي تهيمن على النقابات المهنية، ونوادي أساتذة الجامعات، والأئمة في المساجد... وقد عجزت الحكومة - بكل هيلمانها - عن أن تحد من نفوذها وتأثيرها؟

لماذا لا نكون واقعيين ونطرح المغالطة والمكابرة...

من وجهة النظر الشعبية، ومن واقع إرادة الجماهير.. فإن الإخوان موجودة وليست محظورة.. والأجهزة التي تدعي حظرها هي المفروضة على الشعب.

ولو سألت الإخوان عن سر صمودهم لقالوا إنه الإيمان بالله، والتجرد وتقبل التضحية وقلمما يزيدون على ذلك لأنهم " لا يزكون على الله أحداً".

وهو تعليل لا نرفضه، ونرى بالفعل أنه أحد أسرار قوة الإخوان، ولكنه لا يكشف عن كل جوانب الموضوع.

وزهد الإخوان في الحديث عن أنفسهم، أو التغني ببطولاتهم، إلى درجة يخشى بعضهم الحديث عن بطولات شهداء فلسطين حتى لا يحبط عملهم أو يؤثر على خلوص نيتهم، هذا المسلك جعلهم يهملون التاريخ لحركتهم أو تسجيل مواقفها ووضعهم في المأزق الذي وجدت الحركة النقابية نفسها فيه عندما كانت - وهي أكبر الحركات الجماهيرية وأكثرها حيوية - لا تجد من يعترف بها جنباً إلى جنب الحركات الدستورية والنظريات السياسية التي يعني بها الأكاديميون وتدرس في الجامعات... في الحالين: حالة الإخوان وحالة النقابات العمالية، نجد الإغفال من نوي السلطان، والتعظيم ممن لديهم الأضواء.. في حين أن هاتين الكتلتين هما أكبر تكتلات الشعب وأكثرها تمثيلاً له، وقد كانت هذه الواقعة هي المفتاح الذي أدى إلى استكشاف القسمة الشعبية للإخوان المسلمين.

وعندما ندرس تاريخ ظهور الأحزاب المصرية، فنسجد أنها قامت على أكتاف مجموعات صغيرة من "النخبة" و"الصفوة" أو "البرجوازية الصاعدة"... وهو أمر طبيعي لأن هذه الفئات هي التي في يدها الثقافة، والمال، والمناصب، والمهن.. فهي المؤهلة للعمل، وهي التي تملك مقومات نجاح هذا العمل.. أما دور الشعب، فإما أنه كان محل تجاهل - كما في حزب الأمة أو الأحرار الدستوريين - وكلاهم كان يمثل كبار ملاك الأراضي وبعض أصحاب الأعمال، أو حزب الاتحاد الذي كونه نشأت باشا رئيس الديوان الملكي

بايعاز من الملك فؤاد، أو حزب الشعب الذي أسسه صدقي باشا في الثلاثينيات.. بالنسبة لهذه الأحزاب لم يكن للشعب حساب مطلقاً.. أما بالنسبة لحزب الوفد، أو الحزب الوطني، فإن الشعب - ونعني به الأغلبية الساحقة عدداً والمسحوقه وضعاً - من فلاحين يعملون في الأرض، أو عمال يشتغلون في المصانع، أو موظفين صغار تطحنهم آلة المدينة وأجهزتها.. هؤلاء لم يكن لهم مشاركة فعلية في قيادة الحزب، بمعنى أن لم يمثل في مجلس إدارة الحزب عامل أو فلاح أو موظف صغير!.. وقد اعتبر وجود "أفندي" "الغرابلي" بين شخصيات الوفد البارزة أمراً إداً، ومنح الباشوية بمجرد تقلده الوزارة.. فقيادات الأحزاب - بما فيهم الوفد - كانت من الفئات البارزة في المجتمع حتى وإن كانت جذورها شعبية كسعد زغلول، أو حافظ عفيفي، أو إبراهيم الهلباوي.. إلخ فإن الشقة التي تفصل ما بين "سعد الله" القروي بن جامع وصيف، وبين سعد بك عضو صالون البرنسية نازلي فاضل، وصهر دولة مصطفى باشا فهمي، شقة بعيدة جداً طمست كل الوشائج القروية.. وقل مثل هذا عن أخيه "فتحي زغلول"، أو عن إبراهيم الهلباوي الذي تزوج من إحدى شركسيات القصر الخديوي، (وكانت العادة أن يخصص لها ٥٠٠ فدان).. وترافع ضد فلاح دنشواي.. أو حافظ عفيفي الذي بدأ حياته طبيب أطفال وعضواً في الحزب الوطني ليكون في النهاية مديراً للديوان الملكي، وأحد أساطين الرأسمالية المصرية.. فهؤلاء جميعاً نشأوا من صميم الشعب، ولكن طموحهم سار بهم بعيداً، ثم جاءت الزيجات والمناصب، فعزلتهم تماماً عن أصولهم.. ونحن نعلم أن نسبة كبيرة من المديرين اليوم هم أبناء فلاحين، ضحى آباؤهم بكل شيء في سبيل تعليم أبنائهم، وقد تؤدي بهم الدراسة إلى الخارج والتزوج من فرنسية أو إنجليزية أو أمريكية.. وعندما يعود متأبطاً ذراعها ليزور القرية فقد يجد أباه حافي القدمين وسط الطين!..

وهكذا، فإن أبناء الفلاحين لم يؤسسوا الأحزاب إلا بعد أن اندمجوا في البرجوازية الصاعدة وعاشوها، وانقطعت الوشائج القديمة التي كانت تربطهم بالقرية، وأصبحوا رموزاً للبرجوازية، ومن ثم فلم يكن هناك داع لا عملي، ولا سيكولوجي لتمثيل الشعب في قيادة الحزب.. وكل ما تريده الأحزاب من الشعب هو "التأييد"، وقد قنع الشعب وقتئذ بهذا فأيد الوفد، وصفق عالياً لسعد زغلول، وأطاعه طاعة عمياء خاصة خلال مقاطعة "لجنة ملنر"، وسار في جنازته باكياً.. كل هذا دون أن يكون له مشاركة حقيقية في وضع السياسة أو اتخاذ القرار!

وسعد زغلول نفسه كان سعيداً بأن يكون زعيم حزب "الرعاع". ولكنه ما كان ليقتبل أن يكون أحد الرعاع زميلاً له في مجلس إدارة الحزب.

حتى العمال أنفسهم عندما كونوا حزباً، لم تواتهم الشجاعة لأن يضعوا عاملاً رئيساً له، واختاروا البرنس عباس حليم رئيساً لحزب العمال!

كان هذا هو الدأب المقرر والمألوف

حتى جاء الإخوان فغيروا ذلك تغييراً جذرياً

كان رئيسهم معلماً في المدارس الابتدائية، وظل معلماً حتى استقال بعد خدمة قرابة عشرين عاماً دون

أن ترقية! وأطلقت عليه صحف الوفد "معلم خط" وقامت الهيئة التأسيسية، ومكتب الإرشاد، على عناصر شعبية خالصة من مزارعين أو صغار المهنيين والموظفين، ولم يكن فيهم "بك" أو "باشا"!

وقد استغرب الضابط "جمال سالم" قاضي محكمة "الثورة" التي حاكمت زعماء النظام الخاص في أعقاب المحاولة الملققة لاغتيال عبد الناصر بميدان المنشية ١٩٥٤ أن يكون رئيس النظام الخاص - وهو يوسف طلعت - نجاراً.. وسأله: أنت نجار وتحت يديك مهندسين ومحامين أزي؟ فقال له يوسف طلعت: إن سيدنا نوح كان نجاراً...

وهي محاولة تمثل المنطق الطبقي والمنطق الديني...

وأعتقد أن الذنب الكبير الذي لم يعترفه المجتمع السياسي المصري للإخوان هو أنهم وضعوا نجارين وفلاحين ومعلمي إلزامي وصغار موظفين في مناصب قيادية للعمل العام⁽¹⁵⁾ وأرادوا لهم أن ينافسوا باشوات مصر.. أعضاء كلوب محمد علي وصالونات الأرسقراطية حيث تسوى الأمور بين "الأكسلانسات" من صاحب سعادة أو صاحب دولة، وبك أو باشا، ومالك الأراضي أو رجل الأعمال، وحيث يوجد من المتمصرين ما يعادل المصريين، أو يفوق، ويجري الحديث بالعربية والفرنسية!

وقد كانت هذه الطبيعة الطبقيّة جديرة بدراسة المؤرخين الاجتماعيين، وبوجه خاص الماركسيين أنصار "الطبقات الكادحة" و"الديمقراطية الشعبية"... إلخ لولا أنها ارتبطت بالإسلام.

وهذه - أي الارتباط بالإسلام - قسمة أخرى، لم تبعد الإخوان عن الشيوعيين، الذين يسبتعدون الدين من بين القوى المؤثرة في المجتمع، فحسب، بل أبعدتهم أيضاً عن البرجوازية (أو العلمانية) التي ارتبطت بها الأحزاب المصرية، وكانت تريد أن تفسح المجال أمام الرأسمالية والليبرالية، أي الحرية، سواء كانت اقتصادية أو فكرية، ووجدت أن الإسلام سيكون قيدياً على الحرية فركنته في ركن قصي من أركان المجتمع، ونجحت في هذا عندما هيمنت على ثورة ١٩١٩، ووجدت في سعد زغلول رجلها القوي الذي أعلن شعار "الدين لله والوطن للجميع" وسادت الليبرالية/ العلمانية المجتمع المصري خلال العشرينات والثلاثينات، حتى جاء الإخوان في الأربعينيات فاستنقذوا الإسلام من ركنه القصي: الزوايا والجوامع، الطرق الصوفية، وزارة الأوقاف والوعاظ، والأزهر، ودفعوا به إلى صميم الحياة ووسط المدينة والجامعات... إلخ وجعلوه منهج حياة.

وهذا هو الذنب الثاني للإخوان الذي جمع عليهم عداوة البرجوازيين والشيوعيين معاً، وما أقل ما يمكن أن يتفق عليه هؤلاء.

(15) قد يلحظ البعض أن عدداً محدوداً من "البرجوازية" اتصل بالإخوان بعد أن ذاعت شهرتهم واكتسبوا قوة ونفوذاً، وكانت سياسة الإمام الشهيد حسن البنا أن يحتويهم شخصياً ويحول بينهم وبين قيادة الحركة من ناحية وشعبها وجمهورها من ناحية أخرى، وقد أساء البعض فهم هذه السياسة أو تصور أنها تكريم خاص، أو تقريب لهم.

والذي فات الإخوان أنفسهم - حتى الآن - أنهم عندما جعلوا الإسلام محور دعوتهم، فإنهم كانوا يصرون عن إيمان موضوعي بالإسلام من ناحية، وعن دافع وطني لا شعوري عميق ينبثق عن الطبيعة الإيمانية لمصر، ويتفق - بالتالي - مع طبيعتهم الطبقيّة الشعبيّة، فهم كانوا أكثر إخلاصًا للشعب واتساقًا مع طبيعة مصر من البرجوازيين الذين أرادوا فرض مصالحهم على المجتمع المصري أو الشيوعيين الذين أرادوا فرض فكر غريب مستورد على مصر.

هذان هما الذنبان الكبيران للإخوان.. ومن وجهة النظر البرجوازية الأرسطراطية، فليس هناك ما هو أشد خطورة عليهم منهما.. فكيف يسمح لأصحاب الجلابيب الزرقاء من الفلاحين، أو الأيدي الخشنة من العمال أو صغار الموظفين المعذبين بهموم الحياة المدنية، بمنافسة الباشوات وأصحاب المصالح الحقيقية (كما قال صدقي باشا!).. وكيف يمكن السماح بأن يعود الإسلام محورًا للحياة فيلزم الاقتصاد والسياسة قيمًا وواجبًا تعدد قيدًا على حرية عملها، أو قل استحوازها واستغلالها؟

وكيف يؤمن الماركسيون الذين شابهوا البرجوازيين في أنهم أصحاب اشتراكية الصالونات والكراسي الوثيرة، وأبناء الباشوات وبنات الطائفة الإسرائيلية، بهؤلاء الأجلاف المسلمين؟! هذان هما ذنبا الإخوان، ومن أجلهما أصلت عليهم السيوف، واشتهرت الأقلام، وزوج بهم في السجون.

أما ما يدعونه من اتهامات، فهي محض هراء..

خذ مثلاً الإرهاب!

إنهم لا يفتأون يتحدثون عن الإرهاب والنظام الخاص الذي وضعه الإمام الشهيد حسن البنا في الثلاثينيات.. والحقيقة أن الإمام الشهيد رحمه الله شاهد الجيش المصري الذي أراده الإنجليز جيش تشريعات، وشاهد الميوعة وهي تزحف على الشباب، فأراد لهم قدرًا من الرجولة والصلابة والإيمان، وتحمل المشاق والتضحيات، والتربية تربية رياضية/ عسكرية.. وكان يضع نصب عينيه أمرين:

الأمر الأول - وجود ٨٠ ألف عسكري إنجليزي في البلاد من قصر النيل والقلعة حتى الصعيد ومناطق القتال التي كانت "معسكرًا" بريطانيًا خالصًا، وأنه لا بد من أن يأتي يوم لمناجزة هذا الجيش.

الأمر الثاني - الذي كان نصب عيني الإمام الشهيد وهو يؤسس النظام الخاص، ظهور الصهيونيين وزحفهم على فلسطين والسياسة البريطانية التي كانت تمالئهم وتمكن له... وفي هذه النقطة كان الوعي الإيماني أهدى سبيلًا من الوعي السياسي الذي لم يكن ليتبين بالضرورة الأبعاد الخطرة لمثل هذه القضية، مما جعل أحد رؤساء الوزارات المصرية يقول وهو يهز كتفيه "إنني رئيس لوزارة مصر وليس لوزارة فلسطين!".. وجعلت رئيسًا آخر يرفض شراء عدد من الدبابات أراد الإنجليز التخلص منها بأبخس الأثمان.. ومعروف أن الإسرائيليين كان لهم وجود مكثف في المجتمع المصري خلال فترة الأربعينيات وظهر منهم

وصيفة الملكة، ووزير المالية، وكان كبيرهم عضواً في المجمع اللغوي، وكان لهم جمعيات تجمع الإعانات للمهاجرين اليهود إلى فلسطين، وكانت شركة الإعلانات الشرقية في يدهم، فضلاً عن سلسلة من المحال الكبرى (شيكوريل/ بنزايون) "وصحتها بن صهيون" إلخ.

كانت هاتان الحقيقتان المصيريتان: وجود الجيش البريطاني في قلب مصر، وزحف الصهيونيين على حدود البلاد، في ذهن حسن البنا عندما أسس النظام الخاص، وأخذ له أقرب صور التنظيم إلى الرياضة والعسكرية وهو "الجوالة"، ومن خلاصة الجوالة بدأت نواة النظام الخاص.

وقبل أن يستشهد الأمام، بدأت المعركة في فلسطين، وأفسح الاحتلال البريطاني، بل وقيادة الجيوش العربية التي كان يرأسها الملك عبد الله وقائده الجنرال جلوب، لليهود، ومكنتهم من مواقع ليهزموا جيش مصر، وكانت القوة البارزة في هذه المعركة هم الإخوان المسلمون الذين هزموا الإسرائيليين في كل موقعة حتى صدرت أوامر النقراشي باشا رئيس الوزراء المصري! بسحبهم من ميدان القتال إلى معسكر الاعتقال!! وانفسح المجال لليهود، فتصور جريمة السياسي المصري الذي أمر بذلك، ومكن لليهود، وما ترتب على هذا الإجراء الخاطئ - أو الخائن - من تطورات بعيدة المدى على مستقبل البلاد.

وكان من بين الذين أشرفوا على تدريب "النظام الخاص" عدد من الضباط منهم "جمال عبد الناصر نفسه" وقد ردوا له هذا الجميل عندما استنفذوه من أسر الفالوجا.

ثم جاء دور الكفاح الوطني في منطقة القتال، وحمل الإخوان عبأه وأسماء المنيسي وشاهين وغيرهما من شهداء الإخوان شاهدة على ذلك.

يقولون الاغتيالات...

ويذكرون أولاً اغتيال الخازندار ثم اغتيال النقراشي وما تلي ذلك من تفجيرات الشركات اليهودية.. إلخ.

أما اغتيال الخازندار فقد كان اجتهاداً خاطئاً وعملاً غير مسئول.. وغضب له الإمام البنا أشد الغضب.. وحاولت دوائر النظام الخاص علاج هذا الخطأ بطريقتها الخاصة مما لا يتسع المجال هنا لشرحها.. وقد يكون في الإخوان عيوب عديدة، ولكن ليس منها الكذب والخداع، وقد اعترفوا بخطئهم.

أما اغتيال النقراشي، فإن النقراشي نفسه كان - بالتعبيرات السائدة - إرهابياً كبيراً وعضواً مسئولاً، إن لم يكن رئيساً، في عمليات اغتيال الضباط الإنجليز خلال ثورة ١٩١٩، وفي أعقابها.. وقد صدرت عليه أحكام من محاكم إنجليزية!

قد يقولون إن اغتيال الإنجليز بطولية، أما اغتيال المصريين فهو نذالة. وهذا منطوق عنصر يبحت،

لأن المعول عليه عند إصدار الأحكام هو العمل، فإذا كان المصري ظالماً أو خائناً، فإن مصيرته لا تشفع له.. وإذا كان الإنجليزي أميناً وعادلاً فإن إنجليزيتته لا تضره، ولا يمكن أن نسمح للعاطفة الوطنية، دون أن نضبطها بالعقل والمنطق، بإصدار الأحكام!

وكان النقراشي شخصياً عنيداً⁽¹⁶⁾ ضيق الأفق، ينظر إلى الوزارة كما لو كانت مدرسة هو ناظرها والحاكم بأمره فيها. وتحدى إرادة الشعب عندما حل أكبر هيئة شعبية لها عضو في كل قرية، وكل حارة، وأعمت العداوة السياسية ومنصب الحاكم العسكري عينيه عن معان واعتبارات كبرى، وسن سنة الاعتقال الجماعي، ورفض مساعي الصلح، وفضلاً عن هذا كله مكن اليهود من الاستحواذ على فلسطين عندما أصدر أوامره بسحب القوة التي كان يمكن أن تصدهم، وهذه كلها تصرفات يجب أن توضع في الحسبان عند الحكم على قضية اغتياله، ولعلها يمكن أن تنهض عذراً لقائل النقراشي على أساس أن الشعب عندما يستبد به حكامه، ويغلقون أبواب أي مسعى لتصلح أو حوار، فلا يكون أمامه سوى اللواذ بصور من العنف أو القوة لا تعد سليمة من ناحية المبدأ، ولكن قد تعد ضرورية بحكم الظروف والأوضاع العملية، وقد توضح ذلك كلمة الأستاذ عبد العزيز الشوربجي نقيب المحامين عندما قال "ألا يوجد في مصر رجل، رجل واحد، يخلصها ويخلصنا جميعاً من هذا الفرعون!"⁽¹⁷⁾.. فإذا كان مثل هذا القانون الضليع يقول هذا عن السادات الذي حاز نصر رمضان وفتح المعتقلات، فقد يكون لعبد المجيد حسن عذر في ارتكاب جريمته، وهو بعد لم يقم بها ابتغاء مغنم، أو كان في ذهنه الفرار.. إنه إنما قام بها محتسباً دماءه في سبيل الله والوطن.

فإذا تعاضم ذلك بعض الكتاب، فأرجوا أن يقرأوا تاريخ حركة ٢٣ يوليو ليعلموا أن عبد الناصر، وكما الدين حسين، وخالد محيي الدين، كانوا في خلية واحدة في النظام الخاص وبايعوا نائب المرشد العام، وليقرأوا كذلك "قصة الثورة"، وكيف دبر عبد الناصر اغتيال حسين سري عامر، واشترك هو وكمال الدين

⁽¹⁶⁾ عندما كان النقراشي وزيراً في وزارة الوفد سنة ٣٦ شكا النحاس باشا مر الشكوى من عناده وإصراره على فرض ما يرى دون نظر إلى بقية زملائه، وهدد أكثر من مرة بالاستقالة ما لم يؤخذ برأيه وسكت عليه النحاس حيناً، ولكنه عندما تمسك بعدم تعيين أحد الوطنيين من زملائه في عمليات اغتيال الضباط الإنجليز وأمضى في السجن ثمان سنوات، ورفض عشرة آلاف جنيه مكافأة لمن يعترف على النقراشي نقول إن النحاس تملكه الغضب إزاء جحود النقراشي، وضرب برفضه عرض الحائط، بعد أن اتخذ مجلس الوزراء قراره بالإجماع - فيما عدا النقراشي - بتعيين هذا الوطني النبيل (انظر مذكرات النحاس باشا في العدد الصادر في ١٥/١١/١٩٩٤ من جريدة الشرق الأوسط اليومية).

وعندما ذهب النقراشي لا يمثل الأمة ولا يحق له الحديث باسمها، وكان جزاء الإخوان لتأييدهم له هو حله لهم واعتقالهم فكرر سنة ٤٨ العقوق الذي أبداه سنة ٣٦ وأشرنا إليه آنفاً. على أن سياسة النقراشي كانت المسمار الأخير في نعش السعديين. ولم تقم لهم قائمة واستحقوا لقب "السعديين الأشقياء الذي أطلقناه عليهم.

⁽¹⁷⁾ محاكمة فرعون: خبايا محاكمة قتلة السادات، تأليف الأستاذ شوقي خالد المحامي، ص ١٣ و ١٤، وقد حضر الأستاذ الشوربجي إحدى جلسات محاكمة خالد الإسلام بولي وعانقه!

رفعت في ذلك.. لولا أن الرصاصات قد طاشت.. وليقرأوا كذلك كتاب عبد اللطيف البغدادي ليعلموا أن الحركة كادت أن تصبح حركة اغتياالات كبرى لو توفر عدد العربات المطلوب!!⁽¹⁸⁾.

أما الذي لا يمكن الاعتذار عنه، أو تقبله بأي صورة، وما يلصق بأي حكومة سبة ليس هناك ما هو أسوأ منها.. فهو أن تقوم الحكومة بكل أجهزتها باغتيال معارض أعزل في جنح الليل مستخدمة الضباط الذين يفترض أنهم هم الذين يحمون المواطنين تطبيقاً لمؤامرة على أعلى المستويات لاغتيال حسن البناء، بعلم من القصر، وبأمر صادر من رئيس الوزراء في ذلك الوقت إبراهيم عبد الهادي إلى اللواء محمد وصفي، كما جاء في كتاب "خريف الغضب" للأستاذ محمد حسنين هيكل، وقد حوكم إبراهيم عبد الهادي على تهمة كان منها هذه التهمة، وحكمت عليه محكمة الثورة بالإعدام، ثم خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدية.

هذه هي صور "الإرهاب والاغتياالات" التي نسبت إلى الإخوان.. أما بعد ٢٣ يوليو، فالقضية التي يعيدون فيها ويزيدون هي محاولة اغتيال عبد الناصر بميدان المنشية بالإسكندرية سنة ١٩٥٤.

وأنا لن أتكلم، وإنما سأدع اثنين من أقسى نقاد الإخوان هما الدكتور فؤاد زكريا والدكتور عبد العظيم رمضان، فإنهما عندما عرضا لهذه القضية حكما بوجود تواطؤ ما مابين السلطة وبعض دوائر النظام الخاص، وأنه أمكن استدراج محمود عبد اللطيف، بعد اتخاذ الضمانات اللازمة، وأنها في حقيقتها كانت مؤامرة من عبد الناصر على الإخوان أكثر مما كانت مؤامرة من الإخوان على عبد الناصر!⁽¹⁹⁾.

وقد نفى الإخوان، وما عهدنا عليهم كذبا، أي علاقة لهم بهذه القضية.

أما عملية ١٩٦٥ فإنها تلفيق من مكتب المشير أراد به رجاله ضرب عصفورين بحجر واحد، ضرب الإخوان من ناحية، واستحوأهم على السلطة والنفوذ من ناحية أخرى.. وقد تحقق هذا، وتغول مركز المشير وضباط مكتبه الفاسدين. ولكن الله كان لهم بالمرصاد.. أن هزيمة ١٩٦٧ كانت إلى حد ما نتيجة مؤامرة ١٩٦٥ على الإخوان، لأنها وضعت زمام الأمور في يد زمرة فاسدة مرتشية من الضباط مشغولة دائماً بمشكلاتهم النسائية!

(18) في ٢٢ يونيو ١٩٥٣ أشار عبد الناصر تحت عنوان قصة الثورة إلى معرفة القصر الملكي بأسماء الضباط الأحرار، ثم قال: "فاجتمعنا وقررنا أن نتخذ إجراء مصادا، وفي أقرب وقت، وكانت أماننا خطتان: الأولى أن يقوم الجهاز الخاص (وقد استخدم عبد الناصر هذا التعبير الإخواني لأنه كان حديث عهد بهم) - باغتيال جميع الخونة المصريين. والخطة الثانية هي أن يقوم جميع الضباط الأحرار بالعمل لتغيير النظام بأجمعه.

وقررنا يوم ١٨ يوليو تنفيذ الخطة الأولى، بل لقد وضعت الخطة فعلاً وصدرت الأوامر بتنفيذها في القاهرة والإسكندرية يوم ٢٠ يوليو.

ولكننا اجتمعنا يوم ١٩ يوليو ووجدنا أننا بذلك نقضي على حركة الضباط جميعاً، إذ أن النظام سيبقى مهما قتل أنصاره، وستكون النتيجة حملة من الإرهاب..".

(19) انظر تفصيل ذلك في كتابنا "الإسلام هو الحل" الصفحات من ١٦٣ إلى ١٦٨.

هذه هي قضية الإرهاب والاعتقالات أشرنا إليها بقدر ما يسمح السياق وهي تدين المسؤولين عن الحكم في الحقبة الملكية والناصرية، أكثر مما تدين الإخوان.. لغلبة الفساد والرشاوى والاعتبارات الحزبية الضيقة في الحقبة الملكية، ولديكتاتورية وكبت الحريات والاعتقالات والتعذيب، وأي إرهاب لأي هيئة شعبية يمكن أن يقارن بإرهاب صلاح نصر وحمزة البسيوني؟ إرهاب وصل إلى حد القتل والاعتقال للعشرات من المسجونين ودفنهم في رمال مدينة نصر!

ومن الاتهامات التي تقدم ضد الإخوان، أنهم يريدون الاستحواز على السلطة والوصول إلى الحكم وتأليف حزب إسلامي...

وقد "غلب" الإخوان من القول مراراً وتكراراً إنهم ليسوا حزباً كباقي الأحزاب التي تقوم واضعة نصب أعينها الوصول إلى الحكم، وأن هدفهم ليس الاستحواز على السلطة لأن السلطة والحكم - في أفضل الحالات - وسائل وليست غايات.. ولكن هدفهم وغايتهم إشاعة الفهم الإسلامي بين الناس، ووسيلة ذلك - بالدرجة الأولى - إقناع الناس - آحاد وجماعات - بأفضلية الإسلام بالحكمة، والأدلة، والموعظة الحسنة، فقد أرسل الله تعالى رسله دعاة وهداة.. ولم يرسلهم حكماً أو ضباطاً أو سلاطين!

وأكد الإخوان - مراراً - أنهم لا يسعون للحكم، ولكن الحكم قد يسعى إليهم يوماً، عندما تؤمن أغلبية الشعب بدعوتهم ويطلبون إليهم عبر صناديق الانتخاب الحر ذلك، عندئذ لا يمكنهم النكوص عن هذا الواجب الذي هو في حقيقته ابتلاء ثقيل وتكليف لا تشريف.

لقد قال الإخوان ذلك مراراً وتكراراً من الأربعينيات حتى آخر حديث صحفي أدلى به المستشار مأمون الهضيبي لمجلة روز اليوسف حديثاً.

ولكن، حتى لو فرضنا أنهم يسعون إلى الحكم.. فما العيب في هذا، هل "الkekة في يد اليتيم عجة!!" كما يقولون... إن الإخوان مصريون كغيرهم ولهم حقوق المواطنة كاملة.. فإذا أرادوا تكوين حزب لهم فهذا حق دستوري ديمقراطي لهم، ولكل المصريين..

أما القول إن حزبهم يرفع الرمز الإسلامي، والشعب كله مسلم، وهذا يوحي بأن الإخوان وحدهم هم المسلمون، فهذا منطق عجيب لا يمكن أن يقبل فهل لو تسمى حزب بالحزب المسيحي الديمقراطي، كما في ألمانيا، فإن هذا يعني أن هذا الحزب يحتكر "المسيحية الديمقراطية" وأن غيره لا يكونون مسيحيين ديمقراطيين!!؟

لم يدع الإخوان في يوم من الأيام أنهم المسلمون دون الناس، أو أنهم يحتكرون الدعوة إلى الله.. فباب الدعوة مفتوح للجميع، ويمكن لمن يشاء أن يؤسس أحزاباً إسلامية ولا يملك له الإخوان شيئاً.

أما أنه لا يجوز تكون حزب إسلامي حتى لا تتأثر النعمة الدينية، وتقوم الفتنة الطائفية، ويتكرر في

مصر ما حدث في لبنان، أو تقوم دولة في أسبوط إلى آخر هذا الهراء.. فهذه تخاريف حشاشين لا تستحق ردًا... وإذا أراد الأقباط أن يكوّنوا حزبًا فهذا من حقهم، ولن تحدث مذابح، وإنما سيحدث "الحوار الإسلامي المسيحي" وقد عاش أقباط هذه البلاد سعداء تحت حكم الإسلام أكثر من ألف عام، ولن يجدوا أفضل من شعار: "لهم مالنا، وعليهم ما علينا"، فهو كسب خالص لهم، وهم أذكى من أن يضحوا به!!

ولا أستطيع أن أغالب الخيال والافتراضات، التي تبدأ بـ "لو" وهي للأسف حرف امتناع، فلو أن الإخوان، أو غير الإخوان، أرادوا القيام بثورة فإن هذا عمل مبرر سليم، وإنما ظهر الحكم الحالي بفضل انقلاب ٢٣ يوليو وتحرك الجيش نفسه لما ظهر من فساد، وقد عثش الفساد وباض وفرّ! خ وأصبح دولة داخل الدولة، وما من أحد يدين الثورة على الفساد، إلا إذا كان هو نفسه فاسدًا...

ولكن ليس معنى كل ما قدمنا أن الإخوان برؤوا من النقص، وخلوا من الأخطاء...

ويحس الإنسان أن وجوه النقص هذه هي التي حالت دون أن تقوم الهيئات الشعبية المصرية، وأكثرها تواصلًا حقيقيًا، رغم تحريم القانون، بدور أكبر، حتى عندما نضع في حسابنا المقاومة التي تعرضت لها.. لأن الهيئات "الإيمانية" لا يمكن أن تؤتي من الخارج قدر ما يمكن أن تؤتي من الداخل نتيجة لنقص في الفهم أو الإيمان، وبدون ذلك كان يفترض أن يغير الإخوان وجه المجتمع المصري، فما من هيئة رزقت إيمانًا، وجمهورًا، ووجودًا متصلًا، مثل الإخوان...

وقد يكون من المفارقات أنهم هم آخر الناس إحساسًا بميزة طبيعتهم الطبقية، لغلبة المعنى الإسلامي الذي يتنافى مع الطبقيات ويجعل المعيار هو التقوى.

وليس هناك تعارض في الحقيقة، ولكنها جناية التبسيط أو قل "التسطيح" في معالجة الأمور، وعدم محاولة التعمق فيها لأن من المسلم به من ناحية التاريخ، والطبقية أيضًا، أن عامة الشعب أقرب إلى التقوى من الفئات التي تشغلهم الأموال والمطامع وتقيدهم المصالح والمناصب وأنهم كانوا هم جمهور الأديان مسيحيين، أو مسلمين.. وهم الذين ناصروا الرسول عندما تجهم له تجار مكة وأثرياء قريش.

وقد يصور ضحالة "النبض الشعبي" لدى الإخوان أنهم نجحوا عمليًا في اقتحام النقابات المهنية، ولكنهم لم يدخلوا النقابات العمالية لا عجزًا، ولكن عزوفًا، وبتأثير النفسية والمزاج، وهذا لا يمنع من أنهم هم القطاع الشعبي حقًا، ولكن "العين لا ترى نفسها!!".

وقبل أن أتحدث عن الدور الواجب للإخوان المسلمين في هذه المرحلة أشير إلى أمرين: **الأولى** أن الإسلام دين الحرية، ودين اليسر، "يسروا ولا تعسروا، وبشروا لا تنفروا"... ويفترض أن يكون الإخوان هم فرسان هذا المجال فلا مزايده عليهم...

والأمر الثاني أن رسالة الإخوان في حقيقتها كانت تجديد الفهم الإسلامي، وقد ضخت الدماء الجديدة في

الدعوة فكرًا، وجمهورًا، فنقلته من طقوس عبادة إلى منهج حياة، ومن وظيفة يقوم بها الوعاظ وأئمة المساجد إلى إيمان ينتظم شباب الجامعات وصميم المجتمع المدني.

ولا جدال أن دعوة الإخوان قضت في أيامها الأولى على المذهبية التي كانت فاشية، وطوت الخلافات الفقهية التي كانت تستأثر بالأهمية وتغرق المسلمين، وأنها غرست بذور فهم جديد للإسلام أريد له أن لا يكون سلفيًا تقليديًا، وإلا فإن الأزهر في مصر، وإدارة الدعوة والبحوث... إلخ في السعودية أقدر على تقديم "السلفية"، وما يؤكد هذا المعنى أن الإمام الشهيد رحمه الله كان مرنا إلى أقصى درجة، مستعدًا دائمًا للتنازل عن كل الشكليات في سبيل الإبقاء على الجوهر، ومن كانت هذه طبيعته، فإنه جدير بأن يقدم صورة جديدة للإسلام، صورة تكون الأولوية فيها للجوهر، وليس للمظهر.

وسأقول للقراء مثالين يبرزان مدى مرونة الأمام الشهيد رحمه الله...

المثال الأول: جاء في المذكرات التي كان يكتبها الشيخ محمد محمود الصواف رحمه الله وينشرها في "المسلمون"، العدد ٣٦ في ٢٨ المحرم ١٤٠٦ - ١٨/١٠/١٩٨٥، ونقلها الأخ عباس السيسي في كتيب له بعنوان "حكايات عن الإخوان"، وفي الموضوع المستشهد به ذكر الشيخ الصواف عزمه مع اثنين من إخوانه، تكوين هيئة إسلامية، قبل أن يعلموا بوجود الإخوان، وعندما علموا أراد أحدهم أن تحمل هيئتهم اسم "جمعية الإخوان المسلمين" في الموصل...

يقول الشيخ الصواف:

"ورفضت أن تكون التسمية مقلدة لاسم في بلد آخر، وأصر الأخ أن تحمل الجمعية الاسم نفسه، أي "جمعية الإخوان المسلمين" فقلت لإخواني لما رأيت بوادر الخلاف بينهم إن الأسماء لاتهمنا، نحن نريد أن نحمل فكرة.. وبعد ذلك شاء الله أن أسافر مع هذا الأخ الذي كان يصر على أن نجعلها باسم الإخوان المسلمين إلى مصر لعمل، والتقينا في مصر بالإمام الشهيد رحمه الله وسألناه في الأمر فقال "سيروا مع الشيخ الصواف فهذا هو الصحيح، لأننا لاتهمنا الأسماء وإنما تهمنا الدعوة الإسلامية ويهمنا الإسلام نفسه بأي اسم كان وبأي ثوب خرج..."

والمثال الثاني رواه الأخ أحمد البس في كتابه "الإخوان المسلمون في ريف مصر" عن شخص كتب إلى الإمام الشهيد يستنكر هتاف الإخوان (الله غايتنا، والرسول زعيمنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا).. ويقول إنها لا تليق.. فكيف تقولون عن محمد أنه زعيم... فكتب فضيلة المرشد متلطفًا يقول: "إذا كان الناس عندكم لا يستسيغون ذلك فيمكن أن يكون الهتاف (الله ربنا، ومحمد رسولنا، والقرآن كتابنا) فهي تؤدي المعنى نفسه..".

فانظر إلى المرونة في موضوعين من المواضيع التي تعد من "المقدسات" التي لا مساس بها: الاسم والشعار.

ولو قدر للأستاذ البنا رحمه الله أن يعيش ليتم عمله، وليخلص من مرحلة "الحشد" إلى مرحلة "الفرز"

ومن مرحلة التعميم إلى التخصص.. فيغلب علي الظن أنه كان سيقوم بتقديم الإضافة المطلوبة، ولكنهم اغتالوه وهو في ريعان العمر وقمة النضج والعطاء، وكان يجب على الإخوان أن يبدأوا حيث انتهى، ولكن الذي حدث هو أنهم تراجعوا عما وصل إليه حسن البنا حتى أصبح البعض يتهمهم بالسلفية والوهابية، والتفوق وغير ذلك...

ونحن نقدر الظروف التي مرت بالإخوان وجعلتهم مثخين بالجراح.. وحالت دون أن ينطلقوا، ولكننا رغم كل شيء نؤمن أن قوة الإخوان وإيمانهم وصمودهم أعظم من أن تقوقعهم، أو تجمدهم، أو تشلهم الضربات.. فإذا كانت هذه الضربات متلاحقة، فهناك أيضاً أمداد متلاحقة من الشباب يدخلون الإخوان أفواجاً.

واعتقد أن للإخوان دوراً حيوياً، وهاماً يفرضه عليهم واجبهم نحوم دعوتهم، ونحو وطنهم، ونحو الإسلام، لأن إغفالهم له أدى إلى هذه الصورة من الركود والخمول والسلبية التي تؤدي إلى التآكل والتواكل.. وبالنسبة لوطنهم فإن هذه السلبية سمحت بتفشي الفساد، ولو قاموا بدور عملي لكبحوا جماحه.. وأخيراً فإن سلبيتهم جنت على الفكرة الإسلامية وسمحت بظهور هذه الجماعات المراهقة، المتشنجة، الشاردة التي ضلت طريقها وسط التيه والضياع.

وأتصور أن هذا الدور ينقسم إلى شقين: الأول يتعلق بمفهوم الإسلام كمنهج حياة، والثاني يتعلق بتجديد الفكر الإسلامي: عقيدة وشريعة وسلوكاً.

بالنسبة للشق الأول، فإن على الإخوان أن يوضحوا دلالات مفهوم الإسلام كمنهج حياة لتحديد الحلول الإسلامية للمشكلات التي تكشف حياة الناس، وبالقيام - بقدر استطاعتهم - (ويمكن أن تكون كبيرة) في حلها عملياً.

من أبرز هذه المشكلات الإسكان وضرورة تيسير شقة لكل شاب يريد الزواج، وبهذا ننفذه من العذاب النفسي/ العاطفي، ومن أن يضحى في أسواق النخاسة العربية أو الأوروبية بخمس أو ست سنوات من زهرة شبابه.. ويمكن الاستعانة في هذا بالبنوك الإسلامية وتقريعها على عدم تفهم واجبها الإسلامي الذي يملي عليها بناء مثل هذه الشقق، وليست عمارات التصيف والإسكان الفاخر.. أنها بهذا المسلك الأخير تضع نفسها في خندق واحد مع البنوك "الربوية" وتقوم بخدمة رأس المال والعجل الذهبي، وليس الله والرسول.

من هذه المشكلات البطالة ووضع مشروعات تعاونية أو فردية صغيرة في "ورش" أو في المنازل، وتيسير المهارات المطلوب (الكمبيوتر/ اللاسلكي/ الكهرباء.. إلخ) بمعاهد تدريب مهني سريعة.. ويمكن الاستعانة في هذا بنقابة المهندسين ومواردها المالية والفنية.

من هذه المشكلات أيضاً مشكلة العلاج الذي أصبح تجارة وخضع لأسوأ صور الاستغلال والانتهازية، ولا بد أن تقف نقابة الأطباء موقفاً حازماً، موقفاً إسلامياً لا تخشى فيه لومة لائم، ولا تخاف سطوة المنتفعين بالطب والعلاج، وأن يكون دورها في هذا أعظم، أو على الأقل مماثل لدورها في عرض السلع المعمرة وتقديم الخدمات والمصايف للأعضاء.

وفي الأربعينات كنت أقول إن هناك هيئة واحدة يمكنها أن تقضي على الأمة في مصر، وتوقف تواطؤ الحكومات على إبقائها!، هذه الهيئة هي الإخوان. وقد لا تكون اليوم بمثل ما كانت في الأربعينات عندما كان هناك خمسمائة شعبة على الأقل كخليات نحل، ومع هذا فلا يزال القول (إيجابًا وسلبًا - أي قدرة الإخوان في مواجهة تواطؤ الحكومات) صحيحًا.

ويمكن للإخوان أن يتبنوا مشكلة بناء بيوت للمسنين من الآباء والأمهات بعد أن ضاق التكوين الجديد للأسرة المصرية عن إيوائهم وفي توجيه القرآن للبر بالآباء والأمهات ما يملي على الإخوان القيام بدور نحو هذا التوجيه القرآني..

ويمكن للإخوان تكوين جمعية باسم "جمعية الإمام الشهيد حسن البنا للتبرع بالدم" خاصة في يوم استشهاده (١٩٤٩/٢/١٢) وبذلك يقومون بواجب إنساني مقدس ويحيون ذكرى إمامهم الشهيد الذي لو أجرى له نقل الدم اللازم لكان من المحتمل أن يعيش...

ويمكن للإخوان دراسة واقتراح تكوين "محاكم صلح" أهلية، شعبية في كل حي تحمل عن المحاكم عبء القضايا "المتنلة" والمتراكمة، وتحقق الصلح والعفو والتسوية بالحسنى وهي كلها من أهم توجيهات الإسلام التي وصلت إلى الدرجة التي يمكن معها عدم إعمال الحدود...، مادامت لم تصل إلى السلطان...

هذه كلها وعشرات أخرى مما يمكن للإخوان أن يقوموا بها مساهمة في جعل الإسلام منهج حياة.

ونعلم أن أصحاب الدعوات المصممة المغلقة كالماركسيين في أوروبا والرافضة الحديثة في المجتمعات الإسلامية. (ممن يطلق عليهم الجماعات الإسلامية) يضيقون بفكرة "الإصلاح الاجتماعي" ويرون فيها تمييعًا لدور الدعوة الوحيد وهو تقلد الحكم وتطبيق النظرية أو العقيدة. نرى هذا جليًا في الكتابات الماركسية نحو الحركة النقابية. وفي كتابات حزب التحرير، والفريضة الغائبة نحو مشروعات الإصلاح الاجتماعي. ولكن هذا خطأ خالص فإن أفضل المشروعات هي ما يقوم على أساس شعبي وبوزاع القرآن وليس بوزاع السلطان. وهذه المشروعات كلها خطوات على طريق الإصلاح ولبنات في تكوين المجتمع.

نعم إن الإخوان ليست دولة داخل الدولة، ولا تسمح مواردها بكل هذا النشاط، بل إنها "محظورة" كما يقولون.. ولكننا جميعًا نعلم أنها لو آمنت بما قدمنا، فلن تعجز عن أن تتوصل إلى الموارد البشرية والمادية التي يمكنها من القيام بدورها.

أما الشق الثاني، الخاص بتجديد المفاهيم الإسلامية، فإن مفتاحه الرئيسي هو - في ثلاث كلمات - (العودة إلى القرآن)، لأن المذاهب، والفقهيات، والتراثيات، أصبحت سدًا عاليًا يفصل ما بيننا وبين المنبع، ويفسد بطريقته طريقة القرآن، فكأننا ما كان الإعزاز لهذا التراث وأئمة فائه أولى، والقرآن أحق. ومن العجز وكلال الهمة، وصدء العقل أن نظن أننا لا نفهم القرآن إلا في ضوء التفاسير وما وضعه الإسلام.. فهذه مخالفة صريحة لنهي القرآن الناس عن أن يتبعوا كلام آبائهم وأجدادهم وأن يأخذوا بما أنزل الله.. وأنا مؤمن تمامًا أن الخطأ والقصور فيما وضعه الآباء والأجداد أكثر من الصواب فيها. وأنها تعجز عن أن تجابه تحديات العصر، أو أن تسامي النص القرآن الذي يمكن استلهاه في مواجهة هذه التحديات.

في ضوء هذا المفتاح، يكون علينا الإيمان بالله، كما صورته القرآن، وليس كما صورته علم الكلام الركيك وما يحفل به من مباحكات وافتراضات تناقض أسلوب وطريقة القرآن.

في ضوء هذا المفتاح، تكون القيم الإسلامية العظمى هي مصادر الفقه الإسلامي، وأولها العدل: العدل في الاقتصاد، والعدل في السياسة، والعدل في الاجتماع... ويكون العقل هو ميزان الفكر في كل شيء - باستثناء - ذات الله تعالى التي تعرف بالوحي.

في ضوء هذا المفتاح، نتفهم حرية القرآن، بلا حدود، في مجال الاعتقاد إيماناً وكفراً...

في ضوء هذا المفتاح نضع المرأة الوضع الذي أراده القرآن ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وواضح أن هذه الدرجة هي درجة القوامة المنزلية، وليست المنزلة أو المكانة في الحياة، التي يجب أن تتبع قاعدة المساواة التي وضعها القرآن، مما يخرج عن إطار القوامة المنزلية.

ولا أريد أن أطيل، ولكن قد يكون من المفيد الإشارة إلى أننا قد فتحنا الباب بما قدمناه من كتابات عديدة لفهم إسلامي رشيد وتحديد للموقف الإسلامي في العقيدة، والشريعة، والسلوك⁽²⁰⁾.

وللإخوان أن يأخذوا أو يدعوا.. ينقصوا أو يضيفوا.. ولكنهم في جميع الحالات سيجدون أمامهم اجتهادات ومحاولات.

ولكن لا يجوز لقيادة هيئة - كائنة ما كانت - أن تتصب لأعضائها "محكمة بابوية" تحد ما يجوز أو مالا يجوز من القراءات. فهذا تعطيل وإهدار لحرية الفكر ومسئولية الفرد عن نفسه التي قررها القرآن، ونوع كريبه من الوصاية على عقول الأعضاء كأنهم قُصَّر لا يدركون مصلحتهم. وبأي حق يجوز لفئة أن تدعي القوامة أو تحتكر المعرفة.. أأخذوا من الله موثقاً؟

هذا أمر مرفوض، مرفوض، مرفوض.

إخواني الإخوان..

لعلي أكون قد عبرت عن إعزالي لكم، وتقديري لجوانب في دعوتكم لم تستكشفوها، أو لم تعطوها الأهمية.. وعندما أنتقد السلبي، فأنا مقدر أن هيئة الإخوان هي أكبر هيئة قدمت شهداء، وتعرضت لتضحيات

⁽²⁰⁾ من الكتب التي أصدرناها وتعين القارئ على الفهم الإسلامي المنشود.. الأعلان العظيمان: الكتاب والسنة، العودة إلى القرآن، قضية الحرية في الإسلام، حرية الاعتقاد في الإسلام، الإسلام والعقلانية، البرنامج الإسلامي، الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة، الربا، الإسلام والحركة النقابية، تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي. بيان رمضان. الأسس الفكرية للدولة الإسلامية، الإسلام هو الحل، رسالة إلى الدعوات الإسلامية، ركائز الأصولية الإسلامية.. الدعوات الإسلامية المعاصرة، لا حرج.. إلخ (انظر قائمة الكتب آخر الكتاب) وتتفاوت صفحات هذه الكتب ما بين ٩٦ صفحة و٨١٣ صفحة...

وتحملت اضطهادات.. ولكن ثقتي في قوتكم أعظم من ثقتي في قوة أعدائكم والمتربصين بكم.
وإذا قلت لكم يسروا، ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا.. فإنما أكرر توجيه الرسول.
وإذا قلت لكم لا تتبعوا الآباء والأجداد، وإنما ما أنزل الله، فإنما أكرر ما جاء به القرآن الكريم.
وإذا أوصيت بالمرونة، فقد ضربت لكم الأمثال من سياسات الإمام الشهيد حسن البنا.
وقد كتبت لكم على صفحات هذا الكتاب، لأن شعرة معاوية التي تربطني بقيادتكم الحالية لا تصلح قناة
في هذا الأمر الخطير.

غياب الرؤية الإسلامية (21)

مُتَلَمِّتًا

من الخير أن نقدم لهذا المقال ببعض الإيضاحات لما قد يلتبس بذهن القارئ أو لإلقاء ضوء على فكرتنا عن الموضوع...

فالمقال هو عن "الرؤية الإسلامية" وليس عن الإسلام نفسه، وهناك فارق كبير، ولكن قد يروق لبعض الناس أن لا يفرق بينهما، كما قد تدق على آخرين هذه التفرقة - لذا لزم التنويه!

نحن نعطي الموضوع أهمية كبرى لأنه يعالج قضية تتصل بالإسلام، وأي شيء يمس الإسلام، لا بد وأن يكتسب أهمية خاصة.. فالإسلام هو اختيارنا الحضاري، وهو أصل القيم والآداب، ونحن نؤمن به، ونعتر به، كما لا نؤمن أو نعتر بأي شيء آخر.

بالإضافة إلى هذا الجانب الذاتي، فهناك ما لا يقل عنه أهمية، وهو الجانب الموضوعي.. فبالنسبة لمصر، فإن الدين كان دائماً محور المجتمع، وضمير الشعب، وهذه الحقيقة هي أبرز "خصوصيات" مصر على مر العهود، من أزيس حتى المسيحية فالإسلام، فقضية الإسلام بالنسبة لمصر قضية محورية أصيلة تمس صميم كيان المجتمع المصري، ومع أن مصر ارتبطت بالثقافة الأوروبية (العلمانية كما يقولون) منذ ١٨٠٥ بدء ولاية محمد علي، وأراد لها إسماعيل باشا أن تكون "قطعة من أوروبا"، ثم جاء الاحتلال البريطاني فحاول طمس أبرز مقومات الشعب، ألا وهو الإسلام السياسي (كما يقولون أيضاً)، وختم هذا كله بثورة ١٩١٩ البرجوازية التي أبعدت الإسلام من صدارة المجتمع إلى ركن قصي فيه لا يظهر إلا في المناسبات والمولد والحفلات وعند طلب الفتوى أو رؤية الهلال!!

ومع أن نظم الحكم تصدت للدعوة الإسلامية منذ البداية، فجمد محمد علي عمل السيد عمر مكرم ونفى توفيق باشا جمال الدين الأفغاني.. واغتالت ملكية فاروق حسن البناء.. ثم حلت الهيئة الإسلامية الأم (الإخوان المسلمين)، حتى وضع عبد الناصر سياسة "استهدفت تدمير رجال الإخوان، و"تعهير" نساء الإخوان!!" وفتح السجون والمعقلات التي مورست فيها أشنع صور التعذيب المقيت..

ومع أن وسائل الإعلام والثقافة والصحافة والفنون وضعت كلها في أيدي أفراد تشربوا الثقافة الأوروبية بصورة قطعت كل الوشائج ما بينهم وبين مجتمعهم، وجعلتهم يعملون لخدمة النظام الحاكم، لا يشركون به شيئاً..

مع هذا كله، فإن الطبيعة الإيمانية للشعب فرضت نفسها على الحكام وحفظت للدعوة الإسلامية

(21) نشرت في مجلة منبر الحوار العدد ٣١.

شتاء ١٩٩٤ - السنة التاسعة من ص ١٠٠ إلى ص ١١٣.

تماسكها ومكانتها، وأوقعت الساسة في مأزق اضطروا فيه إلى المداهنة والنفاق وأن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم دون أن يخفي هذا على الشعب الذي فقد الثقة فيهم، وبعدت الشقة بينه وبينهم وأصبحوا في واد والشعب في واد آخر، فلم يجنوا على الإسلام قدر ما جنوا على أنفسهم ونظام حكمهم.

ومرة الثالثة، فإن الإسلام الذي يمثل خاتمة الأديان ونهاية مسيرة الإنسان للتعرف على الله، لا يقتصر على أنه اختيارنا الحضاري، أو أنه "ضمير مصر"، إنه - كذلك - خلاص العالم، لأن الأساس الحقيقي للحضارة هو الدين، وواسطة العقد في الدين هي عقيدة الألوهية، وبقدر ما تقرب هذه العقيدة من الكمال، بقدر ما يكون تميز الدين، وهذا هو ما حدث بالنسبة للإسلام، عندما يفهم فهمًا سليمًا.

فقد توصل العقل البشري إلى تلك المنجزات الرائعة التي قامت عليها الحضارة الأوروبية، ونحن لا نقلل منها، بل نحن أول من يعترف بها، ولكن هذا لا ينفي وجود قصور في ذلك الجانب الهام، جانب السلام النفسي الذي لا يمكن لحضارة الاستمتاع والاستهلاك، أو حتى الفنون والآداب، أن تحفقه تمامًا، لأنها وإن أشبعت مطالب الجسد، وإلى حد ما، النفس، وكفلت الأمن من الفاقة والحاجة (وهي إنجازات رائعة) فتظل الروح جائعة، ولا تزيدها الثروات إلا إحساسًا بهذا الجوع الذي يأخذ شكل "الاكتئاب" والذي يؤدي بصاحبه في بعض الحالات التي الانتحار. ولا يمكن أن يدرك سلام النفس إلا عندما يربط بمرسى موضوعي مطلق تمامًا، وكل موضوعية - خلا موضوعية الله - موضوعية ناقصة لا تيرأ من شوائب القصور والذاتية، ولهذا نغصت الحروب والقلق صفو الحضارة الأوروبية، فنشبت الحروب ما بين الدول الأوروبية بعضها بعضًا، ونشبت في داخل كل دولة بين الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضعفاء.. ثم نقلت أوروبا تلك المعركة إلى الشرق وإلى آسيا وأفريقيا، فنهبت ثرواتها - حتى الثروات الآدمية عندما استرقت الأفريقيين ودفعت بهم إلى مزارع السكر والقطن والدخان في أمريكا وجزر الهند الشرقية.. إلخ، وإذا كان العالم القديم قد شن الحروب مدفوعًا بالجهالة والفاقة والمجاعات، فإن العالم الحديث يشن الحروب مزودًا بالعلم والثروات واستعلاء واستكبارًا وتكاثراً..

ولو استلهمت الحضارة الأوروبية قيم الإسلام، لاستكملت ما ينقصها، لبرئت مما يشوبها.

إلى هذا المدى، نحن نؤمن بالإسلام، نؤمن به لأنه اختيارنا الحضاري، ولأنه سر خصوصية مصر، وقاعدة ضميرها، ومفجر إيمانها، ولأنه أخيرًا خلاص العالم بعد أن بغت الحضارة الأوروبية وطغت وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها. ولا شيء - بالطبع - يمكن أن يعادل هذا التقدير للإسلام، أو سناميه.

في المقال أحكام وآراء تطلق على علاقتها بالنسبة للتفسير والحديث وقد تعطي طابع التعميم، ولم يتسع المجال لتفصيلها أو إيراد الأساس الذي بنيت عليه، لأن هذا سيخرج المقال عن حجمه وطبيعته موضوعه، وسيبعده عن النتيجة التي يراد الوصول إليها.. وقد تعرضنا لمعظم هذه الأحكام والآراء بالتفصيل في كتب سابقة لنا، وبوجه خاص "الأصلان العظيمان: الكتاب والسنة" وعلى من يريد التفصيل أن يرجع إليها..

كيف حدث أن الإسلام، عندما آمن به العرب أول مرة، نهض بهم من قبائل متناحرة تفخر بالشراب

وتتقاتل لسبق حصان أو عقر ناقة، إلى أمة متماسكة تحمل "الكتاب والميزان" إلى الأمم الأخرى، وتهدم الإمبراطوريات الطبقية الظالمة التي قامت على أساس الاستعلاء والاستكبار، وتقدم للبشرية تجربة لم تعرفها - من قبل أو بعد - هي "ديمقراطية الجامع" في عهد الرسول ﷺ، وحكم الخلافة الراشدة بعده!

ثم كيف حدث أن الإسلام لا ينهض اليوم بالمسلمين من درك التبعية المهين، وما توقعه إسرائيل والولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية - حتى حثالتها، الصرب - من إذلال للرجال واغتصاب للنساء، ووصاية على القرار، ولا تحمر وجوه، أو تغلي دماء، أو يتحرك ساكن؟!!

ثم كيف يمكن أن تحتدم العداوات والحروب بين الدول الإسلامية بعضها بعضاً، أو داخل الدول الإسلامية نفسها، حتى ما تعلقت به الآمال - كإيران وأفغانستان، والسودان!!؟!

لماذا حدثت المفارقة...

وأين الخطأ...

لا يمكن أن يكون في الإسلام، لأن الإسلام نهض بالعرب من قبل فقضى ذلك على مظنة أن يكون - بالضرورة - سبب تخلف.

ولا يمكن أن يعود إلى "جنس المسلمين" فليس في جنس المسلمين - إذا جاز التعبير - ما ينحط بهم، فقد كان لهم في يوم ما إمبراطوريات، وعهود ازدهار.

لابد أن يكون هناك "حلقة مفقودة" يتعين البحث عنها...

والحلقة المفقودة هي (سوء فهم الإسلام) إلى درجة جعلت الإسلام الذي يؤمن به المسلمون اليوم غير الإسلام الذي آمن به صحابة محمد والذي جعلهم يفتحون العالم، حتى وإن كان المسلمون اليوم يجأرون بأعلى أصواتهم (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ومن ظواهر سوء الفهم، القضية التي نعالجها الآن، "غياب الرؤية الإسلامية"!

ما الذي نعنيه بافتقاد الرؤية الإسلامية؟

هناك مثل يتحدث عن الأشجار والغابة، ويفرق بين الذي ينظر إلى الأشجار فلا يرى الغابة، ومن ينظر إلى الغابة فلا يرى الأشجار!

ويتمنى الإنسان أن يرى الغابة والأشجار معاً.. ولكن هذا عادة يتعذر، وإذا اتسعت الغابة إلى درجة معينة، فمن المؤكد أنه سوف يتعسر الجمع بين رؤية الاثنين، ويكون على الإنسان أن يقنع بأحدهما.

فإذا نظر إلى الأشجار، فسيعرف شيئاً عن بعضها، ولكنه لن يعرف الباقي، وأهم من هذا أنه لن يلم بروح الغابة، وأبعادها، والصورة العامة لها..

وإذا استشرف الغابة، فإنه لن يلم بالخصائص المميزة لأشجارها.

وفي أيام الرسول كان الإسلام - غابة وأشجاراً - شيئاً واحداً، كانت الغابة محدودة بحيث يمكن أن يراها ويرى ما فيها من أشجار، أو بالتحديد شجرتها!

لأن الإسلام لدى الصحابة هو القرآن والرسول...

القرآن الذي تقبلوه سورة سورة، أو حتى آية آية، لا يتجاوزون بضع آيات حتى يلموا بما فيها من العمل فيأخذون أنفسهم به، وينتقلون إلى آيات أخرى...

وقد يظن أن هذه توحى بالتجزئة، والنظر إلى أغصان الشجرة، وليس الشجرة، ناهيك بالغابة، ولكن حال دون ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص أو تاريخ، ولا هو مبوب كبقية الكتب من فصول وأبواب، من لم يلم بالأول منها لا يدرك الآخر.. إن السور القرآنية أشبه باللوحات التي تُغني كل واحدة بنفسها، وتضم كل واحدة الجوهريات التي في السور الأخرى، وتحمل كل واحدة بصمة القرآن، أو هي حبة من حبات عقد لا تختلف واحدة عن أخرى إلا بما يحقق الكمال للعقد النظيم، بحيث تتألف مع واسطة العقد التي تتميز بالحجم والموقع، ولكن نوعية الحبات الأخرى لا تختلف عنها.. فواسطة العقد هي عقيدة الألوهية، والحبات الأخرى تمثل ما ينبثق عنها من حرية أو عدالة أو يسر.. ففي كل حبة شيء من واسطة العقد، وليس هناك سورة مغلقة على نفسها، منبئة عن إخوانها، فالمعاني القرآنية شائعة في كل السور والآيات تسري وتتمشى معها بحيث تكاد ترى الغابة في الشجرة، وهذا من أسرار إعجاز القرآن!!

وعندما كان الرسول يقرأ عليهم سورة، أو جزءاً من سورة، فإنهم كانوا يتشربونها كلمة فكلمة، آية فآية، فتفعل في أنفسهم كما يفعل أقوى عقار في النفوس.

لم يكونوا يسألون النبي عن معاني بعض الآيات، حتى المتشابهات، ولم يكن الرسول أيضاً ليذكر لهم معانيها إلا في القليل النادر، لأن المعاني - وإن كانت أهم ما يتضمنه كتاب - فإن القرآن لا يصل إليها بالطريق الرياضي (1+1 = 2) ولا بطريق منطق أرسطو، ولا بطريق التعريفات الجامعة المانعة.. إنه يصل إليها بطريق الرمز، والمجاز والإبداع الفني حيث لا يمكن أن يسأل عن معنى الأسود أو الأحمر أو النغم العالي أو الخافت، وليس المهم (يعني آية) قدر ما أن المهم هو (الأثر) الذي يتركه في النفس.. ولعل القرآن نفسه عبر عن هذا بقوله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد ألفنا أن نقرأ في الكتب التقليدية أن الصحابة ما كانوا يسألون لأنهم أفصح العرب لساناً، ولكن هذه ليست القضية، لأن فهم القرآن لا يعود إلى الفصاحة، فليس هو كتاب لغة، ولكنه كتاب هداية، وقد صكت ألفاظه ومفرداته وطريقة نظمه بحيث تحقق التأثير المطلوب للهداية.

وقد كان بوسع الرسول أن يفسر القرآن للصحابة آية آية، ولكنه لم يفعل وما يطلق عليه "التفسير المأثور" وينسب إلى الرسول محدود، ولا يستند معظمه إلى روايات قوية، ناهيك بأن تكون متواترة، وهذا في

حد ذاته يجعل من العسير علينا أن نحكم في القرآن المقطوع بنزوله، والمتعبد بلفظه، أحاديث ليست لها هذه المرتبة، أو ما يقاربها.. وإذا كان لا يؤخذ في مجال الاعتقاد إلا باليقين، وأخبار الأحاد لا تفيد إلا الظن، فإن هذا أحرى أن ينطبق على القرآن لأنه مرجع الاعتقاد.. وعلى كل حال فإن ركافة معظم ما يروون على أنه تفسير مأثور، تغنيا عن البحث في مصداقيته.

والذي حدث هو أن الصحابة استمعوا إلى القرآن بأذانهم وقلوبهم، فتغلغت قيمه ومعانيه في نفوسهم...

وجدوا فيه الترغيب الذي أضرم حماسهم وشد عزائمهم...

وجدوا فيه الترهيب الذي جعلهم يخبتون ويخشعون، ويكبحون نوازع الهوى...

وجدوا الدعوة الانتهاضية للجماهير المستعبدين في الأرض، للانطلاق والعمل، ليكونوا شهداء على الناس...

وجدوا النظم الساحر والموسيقى الأخاذة، ففاضت نفوسهم بالحب، والرضا والجمال...

وجدوا القيم، والحث على السير والتدبر والتفكير والإنفاق والتتديد الفطيع بالظلم والاستغلال والبخل والأنانية والتكاثر والتفاخر.

وجدوا الصورة المثلى للألوهية.. الله.. المثل الأعلى الحي الخالق المصور الخالد، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، أصل العلم والحكمة والرحمة والقوة لا تتركه الأبصار، وليس كمثلته شيء.. فتعلقوا بشعاع من هذه الشمس الباهرة، فأضاء نفوسهم بالمعرفة، وفجر فيها قوة الإيمان... وجدوا المنطق الذي يقوم على البدائ والطبائع وأصول الأشياء بحيث تتفاه القلوب وتتقبله العقول، فيحسم القضايا المعقدة للخلق والبعث والتوحيد، بكلمات معدودات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ..﴾ [المؤمنون: ٩١].

واستشعروا العزة والكرامة من استخلاف الله تعالى لآدم وتفضيله على الملائكة، وتمكينه من مفاتيح المعرفة، وتبيينوا فيما أراده الله من تعدد وما سمح به للشيطان من إغراء، وما كرره من أن الحكم بين الناس إنما هو لله وحده، ويوم القيامة وحده.. حرية الإنسان في سلوك الطريق واتخاذ القرار.. فلم ينصبوا أنفسهم قضاة، ووصل عمق الحرية في نفوسهم أن منح علي بن أبي طالب معارضية الذين خرجوا عليه بالسلاح حرية لا يظفر بها أي معارض في العصر الحديث!!

ولم يفتهم أبدًا مغزى ودلالة القرن القرآني ما بين الصلاة والزكاة، الإيمان والعمل الصالح، فأخذوا أنفسهم به.

وكان هناك آيات، ومعان لم يلموا بها، ولكنهم لم يتعسفوا الوسائل إليها.. فالقرآن لكل الناس وليسوا هم كل الناس، وهو لكل الأجيال، وليسوا هم كل الأجيال، وقد ضم كل شيء، ولن يلموا بكل شيء فوكلوا ما لم يفهموه إلى خالقه مؤمنين أن هذا ليس عجزاً، أو تقصيراً، ولكنه البعد عن التكلف، أو أن يلموا بما لا يمكن أن ينهضوا به فيكون حجة عليهم!!

كان هذا هو القرآن بالنسبة للصحابة، وقد ألموا به، بل وأحكموه تماماً حتى وإن لم يحفظ الواحد منهم إلا بعض السور، لأن القرآن كالثوب أو السجل، تكفي "قصقصة" للتعرف عليه!
ومن هنا خلقهم القرآن خلقاً جديداً...

وكان الذي قدم إليهم القرآن هو محمد نفسه، ولبسانه...
ووجد الصحابة في محمد التجسيد العملي لما يكون عليه القرآن...
كان بالنسبة لهم أسوة وليس سنة، وقدوة، وليس حديثاً...
وجدوه صادقاً، أميناً، براً، رحيماً تسبق رحمته غضبه، وسماحته عقوبته...
وجدوه سخياً كريماً، لا يبقى على شيء لنفسه ويؤثر الآخرين...
وجدوه شجاعاً في الحرب، يتقدم ولا يهاب ولا يتأخر عندما يحاط به ولا يخشى أن يصاب...
وجدوه متواضعاً لا يستعلي، موطأ الأكتاف ليس فحسب لأصحابه الأذنين، ولكن لأي جارية من جوارى المدينة...

وجدوه سهلاً، هيناً، يؤثر اليسر على العسر، والرفق على الشدة وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن حراماً.

وجدوه يتسع لكل الأديان، أوى إله مارية القبطية، وتقبلها أما لأبنه إبراهيم، وضم إليه صفية اليهودية، وعلمها أن ترد على عائشة وحفصة عندما عبراها بأصلها اليهودي "قولي لهما.. أبي موسى، وعمي هارون، وزوجي محمد!".

لم ينقلوا عنه أنه ضرب، أو نهر، خادمًا، أو ندد بمخالف، أو حتى ذكره بالاسم، فكان يكنى أو يقول ما بال أقوام...

وجدوه وهو الفاتح المنتصر، يدخل مكة ساجداً لله على قنّب بعيره لم يدخلها في موكب نصر، ولم يبوحها لجنوده، وإنما قال "أحلت ساعة من نهار" ولما مثل أمامه أعداؤه الذين آذوه أشد الإيذاء، ودفعوه للهجرة، عفي عنهم وقال "اذهبوا، فأنتم الطلقاء" ولما أسلموا محبت كل ذنوبهم السابقة وعادوا إخواناً...

هذا هو محمد الذي آمن به الصحابة، والذي جعلوا منه أسوة لهم، وقبسوا منه، كل بقدره، فأصبحوا كالنجوم...

في القرآن، وفي محمد، وجد الصحابة الإسلام...

ولكن واحدًا من الصحابة لم ير أن عليه أن يحفظ كل آية في القرآن ويعرف على وجه التحديد تفسيرها... ولم ير أحد من الصحابة أن عليه أن ينخلع من ماله وتجارته وعلمه، ليصحب الرسول ليل نهار، وليتقصى كل شاردة وواردة منه...

حتى عمر بن الخطاب، كان عليه أن يذهب للصفق في الأسواق!

فلم يكن هناك "غابة" شاسعة كثيفة تضل فيها العقول.. ولكن كان هناك أساسيات في الفهم والعمل التزموا بها، وأسقطوا ما عداها.

كانت الرؤية الإسلامية متوفرة، بحيث عرفوا الإسلام، وعن هذه المعرفة أصبح بإمكانهم الحكم على الأشياء تبعًا لها...

ولقائل أن يقول...

ونحن اليوم أليس لدينا القرآن، ولدينا السنة؟ فما الذي ينقصنا..؟

نقول إن الصحابة كان لديهم القرآن الذي لم يلتبس بشيء آخر...

وكما قال الصحابة لا إله إلا الله... فأثبتوا وجود الإله بنفي ما عداه وكتفوا المعنى المطلوب، فإنهم كذلك قالوا " لا نُلبس بالقرآن كتاباً آخر"...

ولكننا قد أوجدنا جنب القرآن عشرات الكتب والمجلدات التي تثن منها رفوف المكتبات مما أطلق عليه "التفسير".

ولم يعد الناس يقرأون القرآن مجرداً، وإنما يقرأونه عبر هذه التفسيرات، وبعد أن يكونوا قد رجعوا إليها.

ونحن لا نطعن في أمانة المفسرين أو كفاءتهم، ولكن يظل كل تفسير محكوم بمحددات القدرة البشرية وما يزحف عليها من مؤثرات نفسية أو بيئية... إلخ.

ولعل أبسط ما يذكر في هذا الصدد أنهم لم يجدوا حرجاً في أن يملئوا كتبهم بكل الخرافات والدعاوى والروايات الإسرائيلية التي لا يقتصر الأمر فيها على الكذب، ولكن على أنها تتضمن من المعاني ما يعارض أو يشوه النص القرآني!!

وأسوأ من هذا أنه يذهب بالإعجاز القرآني.. فالصيغة القرآنية المحكمة بطابعها الموسيقي/ الفني/ السيكولوجي والذي تشبه قطعة من السكر المعقود، قد أريقت في جرادل من المياه المتعكرة بالشوائب والخزבלات.. وقد قال الله تعالى ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] لأن القرآن (صيحة) عالية تزلزل الجبال فما بالك بالنفوس التي فيها آذان تسمع وقلوب تؤمن؟!!!

لم يعد القرآن كتاب هداية يخلق النفوس خلقاً جديداً، وإنما مجموعة أقاصيص وحكايات للتسلية، ووضع في قاعدتها "أسباب النزول" فالآية الفلانية نزلت لوقع حادثة معينة، وخلص!!، ومع أنهم لا يفتأون يقولون إن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب، فإن خصوص السبب ألقى غشاوة ثقيلة على عموم النص وموضوعيته وإطلاقه.

وتقبلوا - قالة النسخ - على أسس واهية وأحاديث ركيكة... وحكموا قواعد اللغة في القرآن، في حين أن القرآن وإن نزل بالعربية فإن له قواعده الخاصة ليست فحسب فيما يتعلق بالنحو، بل في صياغة اللفظة.. وكأنهم تصوروا أن الله تعالى سيلتزم بما وضعوه من قواعد!

وقد تنتزع آية من سياقها للاستدلال بها فيما لا يمكن أن يتسق لو استكمل لها ما قبلها وما بعدها، أو تصبح مجافية لآيات أخرى عديدة!!

باختصار، وقف التفسير ما بين القارئ والقرآن، وحال دون أن تتطرق كلمات الله إلى القلب مباشرة بحرفها وجرسها وما توحى به.. فلم يحدث القرآن في المسلمين ما أحدثه في الصحابة عندما لم تكن هناك أمثال هذه التفاسير.

وللرسول كلمة بعيدة المغزى "من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطا" والذي أفهمه أن الرسول (ﷺ) عندما لم يسمح لأحد أن يقول في القرآن شيئاً، وأن لا يتدخل أحد بين القارئ والقرآن.. كان يستبعد كل ما كان يمكن أن يأتي بتفسير.

إن عددًا من العوامل بعضها ذاتي يعود إلى المفسرين أنفسهم وما اعتقدوه، وبعضها موضوعي يمثل المجتمع الإسلامي في فترة معينة فرضت نفسها وأوجدت هذه المجلدات من التفسير.. ولكن هذه العوامل بشقيها الذاتي والموضوعي، قد انتهت الآن، ولم يعد مبرر للعودة إليها خاصة بعد أن ظهر الكم الرهيب من الإسرائيليات والدعاوى التي تطرقت إلى معظمها.

والمطلوب الآن من المسلمين أن يجعلوا علاقتهم بالقرآن مباشرة، وأن يفتحوا عيونهم وقلوبهم له، وأن يقرأوه قراءة تدبر وتفكير وخشوع وإخبات، وأن لا يعودوا لفهم كل آياته إلى كتب التفسير، أو أن يخروا عليها - صمًا وعميانًا، وعندئذ سيخلقهم القرآن خلقاً جديداً... وسيريهم آياته في أنفسهم.. فإذا لم يجدوا هذا، فما قرأوا القرآن حق قراءته...

وحدث للموقف من الرسول شيء قريب كالذي حدث للقرآن.. فلم يعد الرسول هو الأسوة، القدوة، العمل.. ولكن الحديث والسنة التي بنيت عليها الشريعة...

وكان الرسول قد أمر بعدم كتابة كلامه، ومحو ما قد يكون قد كتبه البعض، وما يحتج به المحدثون من جواز الكتابة يحسب عليهم وينقض حجتهم، لأنه يعد ترخيصاً لبعض الأشخاص على وجه التعيين (أبو شاه وعبد الله بن عمرو بن العاص) فيدل على أن الأصل هو عدم الكتابة، وأن الترخيص إنما جاء لشخص بعينه، أو لخطبة بعينها، فضلاً عن أن الكتابة لدى هؤلاء ما كانت تعدو الحديثين أو الثلاثة...

وعلى كل حال فأخر القولين هو عدم الكتابة، بدليل أن السنن لم تكتب في عهد الخلفاء الراشدين، وقد فكر عمر بن الخطاب في كتابتها واستشار الصحابة فوافقوا.. ولكن شيئاً ما حاك في صدره فطفق يستخير الله شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال أني كنت أردت أن أكتب السنن.. وأني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوها عليها وتركوا كتاب الله. وأني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً⁽²²⁾.

وبالإضافة إلى نهي الرسول عن كتابة حديثه، فإنه كان يكره لأصحابه كثرة السؤال وقد وضع لهم القاعدة الذهبية في الحديث المشهور:

"أروني ما تركتم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم.. فإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا.. وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم..."

والترمز الصحابة بهذا التوجيه، فلم يكونوا يكثرون الأسئلة، وكان يعجبهم أن يأتي الأعرابي من قلب البادية، لأنه كان يسأل فيعفيهم من أن "يقترفوا" السؤال الذي نهوا عنه!

والذي أفهمه من نهي الرسول (ﷺ) عن كتابة حديثه، ونهيه الصحابة عن الإكثار من السؤال، وكذلك ما جاء عن عمر وبقية كبار الصحابة في هذا الصدد أن الرسول المتأدب بأدب القرآن والملتزم به، لم ير أن أقواله تعد نصوصاً تشريعية ملزمة للأجيال المسلمة، شأنها شأن القرآن وإن لم يمنع هذا أنها كانت التصرفات المثلى وقتئذ.

أما بالنسبة للمستقبل، ولكل المسلمين وليس للعرب فحسب، فإنه لم يضع لهم كتاباً، وكان يرى أن في الالتزام بكتاب الله وما وضعه الله تعالى فيه من الأصول ما يهديهم، وأنه ليس من الخير في شيء أن يقيدهم بتفاصيل قد تصلح للحاضر ولكنها لا تصلح للمستقبل.

هذا ما أفهمه بكل أمانة وإخلاص، وإلا فإني لا أرى سبباً آخر لنهي الرسول عن كتابة حديثه ورفض عمر بن الخطاب كتابة "السنن" لأن فكرة الخوف من اختلاط كلام الرسول بآيات القرآن فكرة مستبعدة تماماً، لأن أي واحد له أقل إلمام باللغة العربية يمكن أن يميز بدهاء ما بين الصياغة الخاصة جداً للقرآن وأسلوب الحديث، فضلاً عن أن كلمة عمر بن الخطاب صريحة في المعنى الذي ذهبنا إليه.

(22) لقد ناقشنا قضية تدوين السنة في كتابنا (الأصْلان العظيمان) بشيء من الإسهاب في الصفحات من ٢٦٨ - ٢٧٥.

ولو كان في حديث رسول الله إلام مثل إلام القرآن لبادر أبو بكر بجمعه، كما جمع القرآن، ولما وقف عمر بن الخطاب موقفه أو قال قوله.

ولا ينفي هذا حرص الخلفاء على تطبيق سياسات الرسول وأقواله، واعتبارها ملزمة، لأن أخذهم بها شيء، واعتبارها ملزمة أبد الدهر وعلى أساس أصولي شيء آخر تمامًا.. فقد كان المكان والزمان واحدًا، ولم يجد من الأوضاع ما يتطلب اختلافًا.. وكان من الطبيعي أن يعودوا إلى ما قرره أو ما قاله الرسول، وعندما بدأت أولى المستجدات في عهد عمر بن الخطاب لم يتردد هذا في الأخذ بما تقرضه الأوضاع الجديدة سواء كان من فارس أو الروم أو من وحي تفكيره أو نتيجة الشورى، بل إن عمر بن الخطاب لم يتردد في "تجميد" بعض النصوص القرآنية عندما انتفت العلة كأبطاله سهم المؤلفة قلوبهم، وحد السرقة في المجاعة... إلخ فضلًا عن اجتهاداته في تحريم الكتابيات والمتعتين، وكان في هذا كله يستلهم روح القرآن نفسه.

ولكن السرعة الرهيبة التي نمت بها الدولة الإسلامية واختلاط الأجناس غير العربية التي كانت معرفتها بالعربية محدودة، وكانت بالطبع متأثرة برواسب حضاراتها، أعجلت المسؤولين من أن يضعوا "فقها" أصيلاً يقوم على الأصول التي وضعها القرآن، كما لم يسمح الاضطراب الذي لبد خلافة عثمان وعلي لهذين بالقيام بهذه المهمة.. وأن المدة أيضاً لم تبعد عن عهد الرسول... كل هذه العوامل دفعت بالأئمة للأخذ بالسنة كأصل له قداسة الأصل القرآني...

وكانت هذه الواقعة التي تعود إلى الملابس أكثر مما تعود إلى "الأصولية" نقطة تحول كبرى في تاريخ الفكر الإسلامي... لأنها جعلت "الحديث" قاعدة للفقهاء وشريكاً للقرآن في المعالجة واتخاذ القرار...

وهكذا بدأ الفقهاء يبحثون عن الحديث، وظهر بجانبهم المحدثون "المحترفون" - إذا جاز التعبير - فما أن ظهر الطلب حتى ظهر العرض، وبقدر ما يشتد الطلب بقدر ما تتفك الحيلة وسائل لكي يفى العرض بالطلب فظهر بجانب المحدثين المحترفين أمثال أبي هريرة وابن عباس محدثون آخرون تولوا "وضع" الأحاديث، إما للوفاء بالطلب، أو للكيد للإسلام أو "حسبة كما ظن بعضهم" أو كما قال نحن لا نكذب على رسول الله، نحن نكذب لرسول الله!!

وكان من المفارقات التي أبرزتها الأوضاع أن أقل الناس صحبة للرسول هم أكثرهم حديثاً عن الرسول، وأن أعرقهم صحبة هم أقلهم حديثاً!!

أبو هريرة الذي أسلم السنة السابعة للهجرة وصحب الرسول ثلاث سنوات روى ٥٣٧٤.. أنس بن مالك وأبو سعيد الخدري اللذان قالت عنهما عائشة "ما علم أنس بن مالك وأبي سعيد بحديث رسول الله، وإنما كانا غلامين صغيرين!!" فقد روي أولهما ١٢٨٦ والثاني ١١٧٠، جابر عبد الله الذي خدم الرسول غلاماً روى ١٥٤٠ أما ابن عباس الذي قبض الرسول وهو ابن ثلاثة عشر سنة على أحد الأقوال ولم يسمع من النبي إلا أربعة أحاديث فقد روى ١٦٦٠ حديثاً.

في مقابل هؤلاء... أبو بكر روى ١٤٢ حديثاً، عمر ٥٠، عليّ ٥٠، عثمان ١٤٦، أبي بن كعب ٩٢ حديثاً!!

ولا يتسع المجال للحديث عن العوامل التي تحكمت في سياسات وأحكام المحدثين الذين جعلوا همهم "غربة" هذا الكم الهائل، وما حفل به من وضع وتحريف... إلخ ولا جدال في أنهم بذلوا جهوداً مضنية ووضعوا أصول علم جديد، له معايير ومقاييسه واصطلاحاته... ولكن هذا كله لا ينفي الحقيقة: اتسع الخرق على الراق... وأصبح الحديث غابة بمعنى الكلمة، وأخمل القرآن، وأصبح هو - وليس القرآن - الأصل الحقيقي للفقهاء الإسلامي!!

بل إن الهيئات الإسلامية التي ظهرت في العصر الحديث هي من إنشاء السنة وليس من إنشاء القرآن!! (23)

بالإضافة، فإن الرغبة في الدفاع عن الإسلام وعرض بعض جوانبه بالطريقة التي يفهمها الروم والفرس، أدت ببعض العلماء لاستحداث علم الكلام والكلام على التوحيد والذات الإلهية بطريقة تختلف تماماً عن طريقة القرآن.

ذاب القرآن في التفسير، وتحولت السيرة إلى سنة، تحولت بدورها إلى غابة كثيفة، واستحالت الرؤية الإسلامية التي كانت ميسرة أيام الرسول ولم يعد الحكم على الأمور من منطلق "الرؤية الإسلامية"، ولكن من منطلق المقدمات المعينة التي يأخذها هذا الأمر، والعلم المعني الذي يعود إليه من تفسير أو فقه أو حديث أو أحكام، وما ذهب إليه أئمة المذاهب بصفة عامة من التشدد بدعوى إيثار "الأحوط" و"سد الذرائع"، حتى فيما تعم به البلوى... بتعبير الفقهاء الأحناف.. كالطهارة والوضوء، فأكدوا أن تحت كل شعرة جنابة، وأنه لو ترك من غسل الوجه واليدين، ولو بمقدار رأس أبرة، فالوضوء باطل، والصلاة باطلة بالتبعية، وأن هذا ينطبق على "المانيكير" الذي يحول دون تلامس الماء للأظافر... إلخ.

إزاء هذا التغلغل في التفاصيل، وطابع التشدد أخذاً بالأحوط وسدّاً للذرائع، لم يعد بوسع المسلمين أن يستخدموا المنطق، أو الأصول التي كان يمكن أن تثمرها "الرؤية الإسلامية" لاتخاذ القرار في أي تصرف، وأصبح عليهم إما أن يسلحوا أنفسهم بموسوعات الفقه والحديث والتفسير... إلخ، وإما أن يسألوا الفقهاء في كل كبيرة وصغيرة، جليلة أو حقيرة، ومن هنا تضخم باب الأسئلة والفتاوى في الصحف الإسلامية أو العامة... حتى "حواء"! والمروء يتعجب من تهامة ما يسألون عنه، وتوقفهم إزاءه، ويتعجب أكثر مما يصلح به ويجول الفقهاء من كر وفر وعود إلى كلام الفقهاء الأقدمين واختلافهم.. إلخ.

وما هو الخطأ في هذا؟

(23) هذه الأحكام هي التي أشرنا إليها في مقدمة البحث إذ لها طابع الأكثرية والأغلبية والصفة التقريبية، ولكن لابد منها لإبراز الطابع العلم.

الخطأ في هذا إيقاف استخدام مجموعة الأصول التي تستمدّها "الرؤية الإسلامية" من روح القرآن وروح الممارسات النبوية والتي تعتمد أساساً على المعقولة والمنطق ومبدأي العدالة والسماحة، اللذين يميزان الرؤية الإسلامية، والشخصية الإسلامية، وبالتالي الاعتماد في اتخاذ القرار على الغير، الذين قلما تأتي ردودهم منفتحة مع "الرؤية الإسلامية".

وقد كان لدى الصحابة "الرؤية الإسلامية" التي كانوا يستطيعون أن يحسموا بها أعقد القضايا، وليست نقطة بول، أو رأس إبرة لم تعمها مياه الوضوء، مثل قضية التحسين والتقبيح التي كانت سبباً في انشقاق المعتزلة، وظلت حتى الآن من أكبر قضايا الفقه الإسلامي.. هذه القضية لم تستحق أن يتوقف عندها النعمان بن مقرن رسول المسلمين إلى رستم الذي قال على البديهة وهو يتحدث عن الإسلام.. وهو دين يحسن الحسن ويُقَبِّح القبيح... ففصل فيها على أساس البدهة ورأي الصحابة في القضاء والقدر قوة دافعة لأنه إذا لم يصبنا إلا ما قدر الله لنا فلا معنى للسلبية ولم يسمحوا لقضية مثل الصفات أن تعكر صفوا إيمانهم.. فكل هذه القضايا حلوها بحكم توفر "الرؤية الإسلامية" لهم.

وقد يروق لبعض فقهاءنا عندما يريدون التنديد بأحد الكتاب أن يقولوا إنه "لا يعرف فرائض الوضوء أو أركان الوضوء!!" دون أن يخطر ببالهم أن هذا يمكن أن ينسحب على ابن عباس الذي ما فتأ يقول إنه لا يرى إلا غسلتين ومسحتين!

فسواء كان الأمر قضية جزئية، أو قضية كلية... فإن انتقاد الرؤية الإسلامية جعل المسلمين في تيه، وأفقدتهم المعيار السليم الذي يجمع ما بين الأصولية الإسلامية، والمنطقية العقلانية.

بين التوقع والتميع (24)

القضية التي تنصدر الاهتمامات وتشغل الأوليات وتمثل الحرج والتحدي للطالب المغترب والعامل المهاجر هي كيف يمكن أن يتكيف مع ظروف هذا البلد الجديد أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا...؟؟ كيف يمكن أن يحتفظ بتقاليده وعاداته وآدابه الإسلامية وفي الوقت نفسه يختلط بهذا المجتمع الجديد الغريب بحيث يستوعب دراسته ويؤدي مهنته ويتجنب المعوقات أو الحساسيات التي لا بد وأن تثور أمامه بالنسبة لوضعه الخاص؟.

بعض الأفراد ما أن يواجه المجتمع الأوروبي/ الأمريكي حتى ينبهر فتتزلزل خلال أسابيع أو شهور العادات والتقاليد والقيم والمبادئ القديمة زلزالاً شديداً. ثم تتهاوى أمام صور الإغراء ومظاهر التحلل ووسائل الاستمتاع ويحس أنه كان في "جره وطلع لبره" كما يقولون في ريف مصر... ويتفاوت ما ينتابه من تطور ما بين التميع الذي يصيب مقوماته والذوبان الذي يأتي عليها ويفقده شخصيته الخاصة.

ولكن يحدث في حالات أخرى أن تثير مظاهر الحياة الأوروبية/ الأمريكية قوى المقاومة في النفس خاصة لدى الذين نشأوا نشأة إسلامية عميقة فهؤلاء لا يستشعرون إعجاباً وانبهاراً بل يحسون عزوفاً وكرهية تؤدي بهم إلى نوع من التعصب والتفوق والانعزال عن هذا المجتمع الكافر الضال المنحل!

وفي نظرنا أن المسلكين خاطئان.. فالمسلك الأول يقضي على الشخصية الخاصة للمغترب طالباً أو عاملاً دون أن يكتسب - ضرورة - الشخصية الأوروبية الأمريكية - ويغلب دائماً أن يستشعر نوعاً من النقص إزاء المجتمع الجديد الذي لم يبيح له بكل أسرارهِ ولم يفتح له كل أبوابهِ واعتبره رغم استعداده للذوبان دخيلاً. كما أن الرفض والتفوق لن يمكن صاحبه من أن يفيد مما يقدمه المجتمع من مزايا وفرص وسيعسر عليه أن يحقق تماماً ما جاء من أجله دراسة أو تجارة أو مهنة.

وقد نجد مثالين واقعيين للتطرف في الموقفين في عمال الشمال الأفريقي "من مغاربة وتوانسة وجزائريين" الذين ذاب كثير منهم في المجتمع الفرنسي وإن ضاق بهم المجتمع الفرنسي، وفي العمال الأتراك الذين يقيمون في أحياء خاصة من المدن الألمانية التي يعملون فيها ولا تجمعهم بالمجتمع الألماني إلا ساعات العمل ولا يلتمون من الألمانية إلا بما يفي لتبادل الأحاديث الضرورية.

ولو تقصينا مواقف الأغلبية العظمى للطلبة والعاملين المغتربين لوجدنا أنها تذبذب ما بين التوقع والتميع بنسب متفاوتة دون أن تتوصل إلى الموقف السليم لأن هذا الموقف السليم، وهو صعب وشائك وحساس، لا يمكن التوصل إليه بالتلقائية أو العشوائية أو الهوى أو حتى الاجتهاد الفردي، فهو مرتبط بعوامل موضوعية قدر ما هو مرتبط بنزعات ذاتية، وهناك عدد من المبادئ والأصول تحكمه وتحدده وتقيمه على

(24) نشرت بمجلة "الطالب المغترب" بالولايات المتحدة، وتصدرها لجنة طلبة اتحاد القوى الشيوعية (الشوريين التعاونيين) بالجامعات الأمريكية.

أساس "أيدولوجي" أو على الأقل "مبدئي" بعيدًا عن الهوى والعواطف، وأهم هذه المبادئ والأصول هي ما يتعلق بالإسلام الذي يهمله البعض فيذوب، ويتعصب له أو يسيء فهمه البعض الآخر فينتوقع، لأن الإسلام هو عصمة المسلمين جميعًا ومن هنا فإن من المهم إبراز المبادئ والأصول الإسلامية التي تؤثر على الموقف.

أولاً: أن المسلم "النمطي" بريء من عقدة النقص أو نزعة الاستعلاء..

بريء من عقدة النقص لأنه يعلم حق العلم أن دينه هو منتهى الأديان وأن رسوله هو خاتم الرسل وأن أي مقارنة ما بين كتاب الإسلام "القرآن" ورسول الإسلام "محمد" من ناحية وبقية كتب الأديان الأخرى ورسولها لا بد وأن تسفر عن الأفضلية المطلقة لكتاب الإسلام ولرسول الإسلام، وهو يعلم أيضاً الآن الإسلام اكتسح العالم القديم اكتساحاً وحرره من إسطار القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية ونظمهما الطبقة الجائرة وأحل محلها "الكتاب والميزان" أي العلم والعدل. وأن الإسلام أنجب من الخلفاء والقادة ورجال الدولة ما عجز عن تقديمه الرومان القدامى أو الأوروبيون المحدثون، وأن واقع "دولة المدينة" المنورة يفضل خيال "جمهورية أفلاطون"، وأن المجتمع الإسلامي الأول أوجد عظماء العلماء في الرياضة والطبيعة والهندسة ومختلف العلوم إلى آخر أمجاد الإسلام التي لا يتسع لها المجال. وهو ثانياً بريء من نزعة الاستعلاء والزهو لأنه يعلم أن هذا كله من الله تعالى وأن الفضل فيه إلى الله وحده وأنه تعالى عندما آثر المسلمين بهذه النعم فإنه ربطها بقيام المسلمين بواجبهم فإذا أخلوا به حرموها وظفر بها غيرهم ممن هو أحق بها لأن الأرض لله يورثها عباده الصالحين كما أنه يعلم حق العلم أن الشنونة بالأنساب أو الأجناس أمر يستبعده الإسلام تماماً، وأن الشعوب جميعاً سواء دون تفرقة والله تعالى لا ينظر إلى ألوان الناس أو أجسامهم ولكن إلى التقوى منهم ولهذا فإنه لا يستشعر استعلاء أو عدوانية أو زهواً أمام الآخرين.

ثانياً: يرتبط بالصفتين السابقتين وينشأ عنهما أن أصبح للإسلام طبيعة موضوعية وليست ذاتية..

بحيث تكون "الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنا وجدها" وبحيث لا يجد الرسول حرجاً من أن يقول بالنسبة لموسى وبني إسرائيل "نحن أحق به منهم" وانظر إلى موضوعية ونزاهة القرآن عندما يتحدث عن الخمر والميسر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] وكذلك ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] و﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] والإسلام هو دين الحق وهي الكلمة التي يعبر بها القرآن عن الموضوعية. إن القضية هي أن الإسلام في حد ذاته يدعو إلى الحق وحيثما يكون الحق يكون الإسلام بل إن الله تعالى سمي نفسه "الحق" ومن هنا كان الحاكم الكافر العادل أفضل وأقرب إلى الإسلام من الحاكم المسلم الظالم لأن الظلم انتهاك للحق وأي انتهاك للحق هو انتهاك للإسلام وأي قيام بالعدل هو تطبيق للحق أي للإسلام.

ثالثاً: إن الإسلام ليس عبادات فحسب..

إن العبادة ليست إلا مكوناً واحداً من مكونات الإسلام. ومن المكونات الأخرى العمل وما يرتبط بالعمل من صلة بالمجتمع أو علاقات بين الناس من وفاء بالالتزامات وصدق في المعاملات وإحسان في الأداء، ومن مكونات الإسلام الشريعة وكل ما يدخل في عالم السياسة والاقتصاد والقانون وإتاحة الحرية والطمأنينة للناس وتحقيق العدالة إلخ.. فالإسلام لا يقتصر على العبادة، ولا هو يتمحور حولها.

والإسلام ينفي الحرج عن المسلمين ما أمكن ذلك ويعتبر التيسير أصلاً من أصوله وهو يعترف بالضعف البشري ولا يفترض في المؤمنين العصمة ويقنع منهم أن لا يرتكبوا "كبائر الإثم والفواحش" وتوقع استسلامهم للضعف البشري في صغار الذنوب التي أطلق عليها القرآن "اللمم" ووضع طريقة معينة للتعامل معها هي أن الحسنة تجب السيئة "إن الحسنات يذهبن السيئات" و"اتبع السيئة الحسنة تمحها" ورحب بالمدنّب المستغفر.

إن استيعاب هذه الأصول والإيمان بها يعين الطالب المغترب والعامل المهاجر على تكييف موقفه في المجتمعات الأوروبية فلن يستشعر الدونية التي تجعله يذوب ويتلاشى في هذا المجتمع، ولن يحس بالاستعلاء الذي يدفع به إلى الرفض والترفع والاعتزال، ويستشعر أنه فرد من أسرة البشر ومن المجتمع الإنساني وأنه يقدر ما توجد من عوامل للفرقة فهناك أيضاً عوامل للوحدة فنحن وهم من أم واحدة وأب واحد ونحن وهم ندين بأديان سماوية حتى وإن حافت الكنائس ورجال الدين والمصالح المكتسبة على روح المسيحية السمحة، وحقيقة أنهم ليسوا مسلمين أمر لا يزعجه البتة لأن هذا هو ما أراد الله وما أوضحه في القرآن مراراً وتكراراً.. وقد وجهنا الله تعالى للتعارف وأمر أن لا يحملنا شأن العدوان على الظلم أو على أن نبخس الناس أشياءهم ووجهنا لأن نلتمس الحكمة في مظانها وأن نطلب العلم ولو في الصين فمكاننا وسط هؤلاء الناس الذين تختلف أسنتهم وبشراتهم وعاداتهم وطرائقهم ليس أمراً مستغرباً ولكنه التطبيق لدعوة القرآن في السير في الآفاق والتعارف بين البشر وطلب الحكمة والعلم من مظانها فلا يجوز أن نسمح للكراهة أو الهوى أن يتحكم فينا فلا نستشعر ضعفاً أو ذلة نحوهم ولا نظلمهم حقهم أو نبخسهم أشياءهم.

داخل هذا الإطار العريض نستطيع أن نعالج بعض التفاصيل منها..

قضية الزي: ليس الزي جزءاً من العقيدة ولكنه يعود بالدرجة الأولى إلى العادات والتقاليد وضرورات المناخ وطبيعة العمل وصناعة الأنسجة والملابس، فلا يتصور أن نلبس في المناطق الباردة ما نلبسه في المناطق الحارة أو أن نقتصر على ما كان عليه الحال قبل ظهور التطورات الضخمة في صناعة الأنسجة وتفصيلها إلخ. وليس هناك ما يمنع من أن نلبس ونحن في دار الهجرة ما يلبسون خاصة وأن من الكياسة أن لا نثير الشكوك والريب حولنا، أو أن نوجد جواً يغلب أن يكون عدائياً بحكم الزي الغريب.

وبالنسبة للمرأة المسلمة فالمفروض أن تلتزم بأداب الحشمة الإسلامية وهذا لا يعني ضرورة التمسك بالحجاب المألوف وإذا أرادت أن تستر شعرها فيمكن أن ترتدي قبعة تحقق المطلوب ويجب أن نتذكر أنه قد

كان من أسباب الحجاب "ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذنين" وهي الحكمة نفسها تُملّي صرف النظر عن الحجاب التقليدي حتى لا يؤذنين، المهم أن لا يكون هناك تبذل أو تبرج "الجاهلية الأولى".

الأكل والشرب: يحرم الإسلام كما هو معروف - لحم الخنزير كما يحرم شرب الخمر وليس هناك صعوبة في اجتنابهما تماماً وسيمنح للطالب المغترب أن يلم بالأطعمة التي يدخلها لحم أو شحم الخنزير فيتجنبها وليس هناك أقل حرج في هذا فمن الآداب المرعية دائماً ترك الحرية لكل واحد في أن يأكل ما يشاء ويختار دون أي أفتيات عليه فهذا شأن الخاص، كما لن يشق عليه أن يمتنع عن الخمر فهناك كثيرون يمتنعون أو يقلون من الخمر ويتمتعون بالتقدير والاحترام فالطعام والشراب ليس فيهما إغناات كبيرة لا للمغترب ولا للمجتمع الأوروبي الأمريكي نفسه.

الحياة الاجتماعية والعلاقة بالمرأة: إن دخول المرأة في المجتمع الأوروبي بالصورة التي نعرفها قد يوجد حرجاً شديداً للطالب المغترب في حالات عديدة، فقد يدعي إلى حفلات راقصة تعقدها اتحادات الطلبة وغيرها في مختلف المناسبات ويصعب على الطالب المغترب مقاطعتها لأن ذلك يمكن أن يمس وضعه في الجامعة أو يعطي انطباعاً معيناً عنه، والأمر في الحقيقة يتطلب قدرًا من الكياسة فيمكن الاعتذار عن أشد هذه الحفلات ابتذالاً، ويمكن حضور البعض الآخر والاعتذار عن مراقبة زميلاته بمختلف الحجج والأعذار، فإذا لم يكن بد فليعتبرها من اللمم "وقد أعتبر بعض المفسرين أن من اللمم القبلية والضمة" وليكفر عنها بعد ذلك بما يستطيع من حسنات من صدق وإخلاص وخدمة لإخوانه، وله أسوة بالرجل الذي قال للرسول إنه مارس مع إحدى النساء ما هو دون الزنا فسكت عنه الرسول حتى قامت الصلاة وصلاتها الرجل معه فلما أعاد الرجل مسأله قال الرسول ألم تصل معنا؟ إن الحسنات تذهبن السيئات.

العلاقات الجنسية: هذه هي أشد القضايا حرجاً وإرهاقاً للطالب المغترب وقد يرى فيها تحدياً يكون عليه أن ينتصر بإيمانه عليه فيسمو بغرائزه ويوجهها نحو مختلف المجالات السليمة، ولكن هذا إن صدق بالنسبة لواحد فإنه يصعب بالنسبة للآخرين لأن الغريزة غالبة والطالب المغترب والعامل المهاجر قد يقضي في دار غربته بضع سنوات في ريعان الشباب ووسط المغريات ولن يكون مفر من إقامة علاقات جنسية، وقد وضع الإسلام الحل لهذه القضية ولكن المسلمين لا يريدون الإفادة من الرخصة التي قررها ومن الحل الذي وضعه الرسول وفرضوا على أنفسهم العنت الذي رفضه الرسول ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] وهذا الحل هو ما يطلق عليه الفقهاء "تكاح المتعة" وكلمة المتعة في حد ذاتها توضح لنا كيف تجرد المسلمون الأول من "العقد" التي استبعدت ألفاظ المتعة والاستمتاع والتمتع كما لو كانت خروجاً على سمت الإسلام وما ينبغي له من حفاظ، والله تعالى أعلم من المؤمنين بأنفسهم وهو يعلم من الناس ما يخفون وهو أقرب إليهم من حبل الوريد وقد رخص الرسول ﷺ بهذا النوع من الزواج المحدد المدة وجعل أحكامه كأحكام الزواج باستثناء المدة وقيل إن الرسول ﷺ نهى عنه بعد ذلك ولكن المسلمين ظلوا يمارسونه طوال خلافة أبي بكر وجزءاً من خلافة عمر حتى نهى عنه عمر وحرمه.. وتحريم عمر يفهم منه بوضوح أنه هو الذي حرمه وليس الرسول ولو كان نهى عمر مبنياً على نهى الرسول لما احتاج إلى أن ينهي هو ولأحوال

الأمر على نهي الرسول فهو أولى، ويكاد يكون من المحقق أن عمر رضي الله عنه خشي إساءة استخدام الناس لهذه الرخصة فبادر بسد بابها وكان مصيباً في اجتهاده هذا، ولكن التحليل والتحرير مردهما إلى الله تعالى وليس إلى أحد من البشر وتحريم عمر لها لا يعني استمرار تحريمها إذا جدت الأسباب التي من أجلها رخص الشارع فيها وهو ما نعتقد أنه ينطبق على الحالة التي نحن بصددتها، حالة المغتربين.

واستخدام هذه الرخصة سيحل عدداً من المشكلات فسييسر وضع الغريزة محلها وبطريقة مشروعة بعيدة عن الزنا الكريه وقد يستطيع أن يهدي الزوجة إلى الإسلام وهو "خير من الدنيا وما فيها" ومسألة الأولاد الشائكة التي كانت أصعب ما في القضية يمكن استبعادها بسهولة وسائل تنظيم النسل "وهو بدوره مشروع ما لم يتخلق جنين" ولن يترتب عليه ما يترتب على الزواج العادي الدائم من مشكلات عويصة "خاصة في أوروبا وأمريكا" عند الطلاق في حالة فشله ولن يثير هذا الأسلوب ضيقاً لدى الطرف الآخر لأنه هو نفسه لا يريد التورط في زواج دائم قبل التثبيت ولأن للزواج المحدد المدة أنصار كثيرون يقدرونه ليس كرخصة ولكن كمرحلة قبل الزواج الدائم وقد وضع ليون بلوم الزعيم الاشتراكي الفرنسي كتاباً كبيراً يدعو فيه إلى هذه الفكرة ويسمىها زواج التجربة ولها أنصار عديدون في الولايات المتحدة مثل القاضي لندسي وغيره.

وبهذه الطريقة يمكن للطالب المغترب أن يحل أزمته الجنسية طوال مدة دراسته حتى يأووب إلى بلده أما بالنسبة للمهاجر هجرة دائمة فإن زواج المتعة سيقدم له الطريقة الوحيدة المشروعة للتوصل إلى الزوجة الصالحة التي يمكن أن يحيي معها إلى الأبد...

إن هذا القسم الأول من المقال لا يتعرض لجانب هام من هذه القضية يتعلق بالأقليات المسلمة التي تطالب بأن تندمج في المجتمع الأوروبي/ الأمريكي بحيث يتقبلها هذا المجتمع فيمن يتقبل من أقليات ومن ثم يمكنها أن تطمئن إلى أوضاعها ومستقبلها، ولعل هذا هو ما يهمنا فيما نحن بصدد، إذ سيمكنها هذا من المشاركة في وضع سياسات وخطط هذا المجتمع داخلية وخارجية بما يتفق مع الخطوط الإسلامية ومصالح المجتمعات الإسلامية وحركات التحرر الإسلامي.

إن الأخذ بفكرة الاندماج يجب أن يكون عن طريق "استراتيجية" بعيدة المدى لها أهداف قد لا تتم إلا في المستقبل البعيد وبعد عدة أجيال، ولكنها ما لم تتخذ الآن فلن يتحقق بالطبع المطلوب منها والذي لا يمكن غيرها أن تحققه والزمن بعد أمامنا ولا نستطيع أن نفر منه. ونظرية الإسلام كلها تدور حول إيثار الأجلة على العاجلة.

إن الاندماج في المجتمع الأوروبي - الأمريكي قد يتطلب الأخذ بمعظم مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه لا يتطلب - ضرورة - الأخذ بها كلها. وسيكون على الأقليات الإسلامية أن تضع خطة محكمة ومحددة، وأن تتوفر لها الشجاعة للأخذ بما لا مناص من الأخذ به، والحكمة التي تحول دون تجاوز

هذا القدر. وسيفيدها أن تدرس تجربة الشعب اليهودي في المجتمع الأوروبي - رغم وجود بعض الاختلافات... إن اليهود استطاعوا ليس فحسب أن يتغلغلوا في المجتمع الأوروبي/ الأمريكي، بل أيضاً أن يسيطروا على فكر هذا المجتمع.

وقد يكون من مفاتيح هذه الخطة التزوج من أوروبيات وأمريكيات بعد إسلامهن لأنهم هن اللاتي سيقدمن الأزواج المسلمين إلى المجتمع الأوروبي.. ومع أن المقاييس الشرقية والإسلامية عن المرأة تختلف عن مقاييسها في المجتمع الأوروبي فمن الخطأ أن نأخذ الفكرة عنها من السينما أو مما تقدمه مجلات الفضائح والابتذال والجنس... إن المجتمع الأوروبي - الأمريكي يقوم على الحرية - وسمح ذلك بظهور القلة التي تؤثر الشهوات أو تكسب منها، ولكن المرأة الأوروبية مع هذا يمكن أن تكون زوجة ممتازة إذا أحبت زوجها وإذا أسلمت "وهذا شرط رئيسي لنجاح الخطة كلها" وهذه هي مسؤولية الزوج المسلم ويمكنه أن يظفر بعقلها وقلبها إذا تمسك بالخلق الإسلامي من صدق ووفاء ومروءة وشجاعة وأمانة.. الخ.

وقد يتطلب الأمر الأخذ بأسماء أوروبية والأسماء لا تهم ونحن نجد من المحدثين من يحمل اسم "إسرائيل" و"داود" و"يعقوب" و"إسحق" و"موسى" و"بن جريج" ويحمل المسلمون أسماء الأنبياء جميعاً دون تفرقة.

كما سيتطلب الأمر الأخذ بالزي الأوروبي ومجارات بعض تقاليد الحياة الاجتماعية بالصورة التي أشرنا إليها من قبل.

وفي الوقت نفسه فمن الضروري للأقلية الإسلامية في أوروبا وهي بالدرجة الأولى مسؤولية الرجل - الزوج والأب..

البعد عن المحرمات صراحة كشراب والخمر وأكل لحم الخنزير والزنا.

ممارسة الصلاة وصيام رمضان مع ملاحظة أن الزوجة والأبناء لن يستطيعوا - دائماً - المواظبة التي يفترضها المسلم ولكن هذا التقريط سيستدرك ما ظل الأب - الزوج مواظباً وموجهاً الزوجة والأبناء إلى الصلاة والصيام وسيهديهم الله الذي هدى "تقيف" من قبل مع تقدمهم في العمر واتزانهم في الحكم والأمور بخواتيمها فلا يبضع نفسه ولا يحدث معهم قطيعة فيتعجل السيئة قبل الحسنه.

الحفاظ على اللغة العربية بأن يتحدث بها الأب في المنزل مع الأبناء ويعلمهم إياها من الصغر ولا يهمل هذا الواجب فإنه سيكون الرباط بينهم وبين عالم الإسلام بحيث يمكن للأبناء أن يتحدثوا ويكتبوا العربية وهذا فيما شاهدت هو أصعب الأمور وما يقصر فيه معظم الآباء مع أنه أهمها، ولو أن الأب تحمل بعض التعب في سبيل ذلك لكتب له النجاح لأن للأطفال ذاكرة لا تقطع وسيتعلمون العربية ما دام أبوهم يحدثهم بها كما سيمكنه أن يعلمهم القراءة والكتابة وشرط نجاح ذلك أن يتم في سنوات الطفولة الأولى، وأن يواصله الأب دائماً كما أن من الخير زيارة الموطن الأصلي كل سنة مرة وقضاء فترة في المجتمع العربي الإسلامي. وأن يكون بالمنزل مكتبة عربية يشغل فيها "المصحف" مكان الصدارة وكما شاهدنا فإن الجيل الثاني - أي

أبناء المغتربين، خاصة المتزوجين من أوروبيات يكاد ينبت عن المجتمع الإسلامي لأن الأب أهمل تعليم أبناءه اللغة العربية فقطع الصلة التي تربط الأبناء بالعالم الإسلامي وأهمل غرس فكرة الانتماء الإسلامي في نفوس أبنائه. ومقارنة إهمال الآباء المسلمين بحرص الآباء اليهود يوضح جريرة الأولين.. فقد حرص اليهود على تعليم أبنائهم "اليديش" وهي اللغة العبرية الأوروبية ورفضوا على المجتمع الأوروبي ما يتطابق مع دينهم بعد أن تمكنوا من التغلغل فيه مع أنهم كانوا عرضة للاضطهاد وكان اسمهم ملوثاً وذلك لأنهم سلكوا استراتيجية طويلة المدى تعني بالجواهر أكثر مما تعني بالمظهر. وعندما قابلت سفيرة إسرائيل في موسكو "جولدا مائير" زوجة مولوتوف عبرت هذه عن سعادتها البالغة بمقابلة سفيرة إسرائيل لأنها "بنت الشعب اليهودي" وأنها تتحدث "اليديشية" التي خاطبت بها جولدا مائير بعد ذلك.

يجب أن توجد تجمعات وتكتلات وتنظيمات تضم شمل الجالية الإسلامية وتعني بمشاكلها وتساعدتها للتغلب عليها وتطمئن على مُضَي الاستراتيجية الموضوعية.

وهناك ملاحظة أخيرة وهامة تلك هي أن هذه التجربة لن تنجح ما لم يستقر في نفوس المقدمين عليها نوع من التقدير والتقبل للمجتمع الأوروبي الأمريكي يقوم على النزاهة في الحكم وسعة الأفق والاعتراف بالحسنات إلى جانب السيئات وأنه وإن كان الساسة وأصحاب المصالح في هذا المجتمع من أسوأ الناس وأنهم ارتكبوا الموبقات في سياستهم الخارجية وسلكوا سبل النهب والسلب إلخ. فإن معظم شعوبهم بعيد عن هذه الجريمة وبريء منها وظهر الكثيرون الذين يعارضون هذه السياسات كما أسهم علماءها ومفكروها في التقدم بمستويات الحياة إلى الدرجة التي لم تبلغها البشرية من قبل. ويجب على الجالية الإسلامية أن تؤمن فعلاً أن هذه البلاد قد أصبحت وطنهم الأول، وأن وطنهم الأصلي قد أصبح هو الوطن الثاني، وأن عليهم أن يخدموا هذا الوطن الأول بصدق وإخلاص كمواطنين صالحين "بافتراض اكتسابهم الجنسية التي يمكن اكتسابها في العادة بعد قضاء فترة معينة أو التزوج من أوروبية" وأن يقدموا لهذا الوطن إضافاتهم، ولن يمنع هذا من أن يقفوا ضد أي سياسة تمس أوطانهم الأصلية أو المجتمعات الإسلامية لأن هذا يدخل في باب الحرية السياسية وعليهم أن يستبعدوا تماماً تلك الفكرة التي تخطر للسذج من المسلمين من أنهم سيكونون في الجنة وسيكون الأوروبيون "الكفرة" في النار لأن الذي يحكم في هذه القضية هو الله تعالى ورحمته وسعت كل شيء فلا داعي للأفتيات عليها ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ [الإسراء: ١٠٠] فضلاً عن أن الأوروبيين لم تبلغهم الدعوة الإسلامية كاملة، أو على وجه التحديد ومن المحتمل أن لا يحاسبهم الله تعالى لذلك وأن يحاسبنا على إهمالنا، وقد لا يدخلون الجنة ولكننا قد ندخل النار لإهمالنا. كما أن الأوروبيين قد يكونون أقرب إلى بعض جوانب الإسلام من المسلمين أنفسهم، والأصل في المسيحية الإيمان بالله واحد أما حكاية الأقانيم الثلاثة فشيء لا يفهمه إلا رجال الإكليروس، فلا ينقص الأوروبيون إلا الإيمان برسالة محمد ﷺ ويغلب أن لا يرفضوها لو بلغوا بها بلاغاً حسناً فليست الشقة بينهم وبين "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ببعيدة كما قد يبدو..

إذا لوحظت الخطة التي أجملناها لمدة مائة سنة مثلاً فيحق لنا أن نتوقع ظهور جاليات إسلامية قوية في المجتمعات الأوروبية وأن يكون بين الوزراء والمسؤولين شخصيات إسلامية بارزة ولنا أن نتوقع انتشاراً للإسلام في أوروبا وتغييراً ملموساً في السياسات الأوروبية تجاه الإسلام والدولة الإسلامية، فإذا راجعنا "حسبة" المكسب والخسارة فلا مرء في أنها صفقة رابحة فقد ضحينا ببعض المظاهر الثانوية وكسبنا للإسلام جمهوراً ولسياسته تأييداً.

نقول هذا ونحن نعلم أن نسبة ضئيلة هي التي ستؤمن به أما الأغلبية العظمى فستقول ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.. [البقرة ١٧٠].

الإسلام خط الدفاع الأخير في مواجهة الإذابة

نشرت بمجلة "جسور" التي تصدر في الولايات المتحدة، "ربيع ١٩٩٤" وجاء بمقدمتها:

"يعتزم الأستاذ جمال البنا إصدار كتاب بهذا العنوان يعالج فيه موضوعه بقدر من الإسهاب، وقد آثر "جسور" بهذا المقال الذي يتضمن بعض أفكاره الرئيسية...".

حُم القضاء..

ووجدنا أنفسنا في مواجهة خطر ما حق يصغر أمامه ما تعرضنا له في القرن التاسع عشر عندما دمرت مدافع الأساطيل الأوروبية حصون الموانئ الإسلامية، ودخلت جيوشها أراضيها، واحتلت عواصمنا في الشمال الأفريقي، ومصر وسوريا والعراق وإيران وبقية الدول الإسلامية..

الخطر الذي يحيق بنا اليوم ليس خطر الاحتلال العسكري البغيض، الذي كان على فجاجته ملموساً يمكن مجابته وجهاً لوجه... فإذا حصدت البنادق صفاً حلت محله صفوف.. لم يعد القتال على الأرض، أصبح في السماء وأصبح قوى غير منظورة يمكن أن تدمر كل شيء... صواريخ تنطلق من حاملات الطائرات في عرض المحيط، أو طائرات دون طيار... إلخ.

وهذا التقدم الرهيب في فنون القتال ليس إلا ضلعاً واحداً من أضلاع "مربع الإذابة"، وتعود كلها إلى التطور السياسي والتكنولوجي.. وأضلاع هذا المربع هي:

قوة عسكرية قاهرة لا يمكن لأي دولة إسلامية، أو حتى لمجموع الدول الإسلامية مقاربتها، دع عنك مغالبتها، وساعد على هذا أن التقنية العسكرية هي أعلى صور التقنية وأبهظها تكلفة.. فطائرة "الشبح" تتكلف بضعة مئات من ملايين الدولارات، وقد يكون من المفارقات أن تستعيد شركات السلاح بعض مواردها من بيع الأسلحة المتخلفة إلى العرب والمسلمين، ولا قيمة لها بالطبع أمام الأسلحة الأمريكية المتطورة!.

تقدم تكنولوجي في وسائل الإنتاج لا يمكن منافسته واحتكار أسرارها والحيلولة دون تسربها، وهو يقوم على استخدام العلوم من كيمياء أو طبيعة أو كهرباء... إلخ، وبهذا التقدم توصل الغرب إلى وسائل صنع وأداء، بل وإلى "تخليق" المواد التي تعوزها، أو التي لا توجد في الأرض بالتكوين المطلوب.. والتوصل إلى مصادر للطاقة، وإن كانت تفضل أن تستنزف طاقة المسلمين - البترول - أولاً...

وتوضع الخطط الاقتصادية والمالية لمساندة التقدم التكنولوجي، كاتفاقية الجات، والشروط التي يضعها صندوق النقد الدولي على السياسات الاقتصادية للدول التي تريد مساندة، بحيث تجد الدول الإسلامية نفسها مقيدة تكنولوجياً واقتصادياً ومالياً.

فكر حضاري - دعائي/ سيكولوجي يعرض عبر قنوات التليفزيون والأقمار الصناعية.. إلخ، وقد قدر أحد الكتاب أنه ستوجد قريباً ما يقرب من خمسمائة ألف قناة تليفزيونية تبث كلها أنباء أو أحاديث أو ثقافات أو صوراً من الفنون لا تعرف حدًا تقف عنده.. كلها بأعلى درجة من التقنية اللامعة، الجاذبة، الآسرة، وكلها تعمل على تمهيج شخصية المواطن المسلم بحيث تذوب مقوماته شيئاً فشيئاً.

وتنتشر أجهزة البث التليفزيوني هذه الصور الاستهلاكية، الاستمتاعية، للحضارة الأوروبية دون أن تشير أقل إشارة إلى ما تطلبه ذلك من عمل دائب، أو علم نافذ.

خط سياسي رئيسي يقوم على الشك في الدول الإسلامية، والنظرة إليها نظرة "دونية" والتفرقة بينها وتقنيت وحدثها إلى دويلات على رأس كل منها أمير له حرس، وعلم، وسلام! وإضرار النعرات العنصرية، ولا مانع من التحرش بها أو إشعال نار الحرب فيما بينها بين آونة وأخرى، كما حدث ما بين العراق وإيران، والعراق والكويت، ومساندة متمردي جنوب السودان!.

بتلاقي هذه الأضلاع الأربعة، بعضهما ببعض، يتكون مربع الإذابة الذي يكون أشبه بحوض كبير يتدفق فيه حامض كبريتيكي يذيب القيم وكذلك المقومات، بل حتى بعض الخصائص البدنية للسكان بحيث يكونون - في النهاية - عجينة يمكن للغرب أن يشكلها كما يشاء ويتحكم فيها كما يريد.

وليس هذا هو كل شيء...

إن هذا المربع يعمل تحت مظلة الشرعية الدولية المزعومة، وهي التي ظهرت نتيجة لتفكك المنظومة الاشتراكية التي كانت توجد نوعاً من "الثنائية القطبية" في السيادة الدولية، فأفسح تحللها المجال للقوة الرأسمالية التي تمثلها الولايات المتحدة، وتملكها نوع من الغرور والزهو قد يمثله ما ذكره الكاتب الياباني/ الأمريكي عن "نهاية التاريخ!"، أو ما أشار إليه القرآن الكريم "يحسب أن ماله أخذه".... وتحت مظلة مزعومة، مصنوعة بدأت الولايات المتحدة ممارسات هي في حقيقتها نوع من العريضة أو القرصنة الدولية، تعيد إلى الذهن سياسات روما في العهد القديم، وسلطت أسلحة جديدة لم يكن للعالم بها عهد كالمقاطعة التي تفرضها على دولة، فتشل الطيران إليها، أو إمدادها حتى بالغذاء!.. وطبق ذلك كله بوحشية على العراق، وليبيا، بحيث لم تستطع مصر - وهي أقرب الدول إليها، وذات المصلحة المباشرة - أن تفعل لها شيئاً، وانصاعت الأوامر المقاطعة.. وفي الوقت نفسه، فأنها تسكت على وحشية الصرب وتراوغ، ووضعت قائمة "للدول المساندة للإرهاب" تضع فيها من تشاء!.

وتتخذ الولايات المتحدة من إسرائيل وكيلاً عاماً مفضلاً في التعامل مع الدول العربية، بعد أن غرستها في قلب المنطقة، ومكنتها من الاستحواز على أحد أقداسها، وزودتها بالسلاح، وساندها في كل ما تفعل، حتى

أصبح هذا القزم الضئيل مارداً.. وهكذا تفعل إسرائيل فإنها تمد يدها لتشد إحدى جاراتها لكي تتفق معها وتذعن لها!.

وبتأثير هذه القوة الضاغطة، ونشرذم الدول العربية والإسلامية، واستخائها، استطاعت إسرائيل أن تقفز بعدد سكانها من مليون إلى قرابة خمسة ملايين، وأن تقضي على مقاومة الدول العربية واحدة تلو الأخرى، وأن تدخل في معاهدات معها، وهي اليوم تنهياً لخطوة جديدة هي أن تجعل من منطقة الشرق الأوسط - كما يقولون - سوقاً للمنتجات الأوروبية التي تمولها وتشرف على سياساتها إسرائيل، بحيث يُستلحق اقتصاد المنطقة، وإنتاجها في الزراعة والصناعة والتجارة باقتصاد إسرائيل، والرأسمالية الصاعدة!

وهكذا نجد مربع الإذابة يحتوي الدول العربية الإسلامية تدفعه، وتحميه إسرائيل من ناحية، والولايات المتحدة من ناحية أخرى!

أين المفر؟!!

العدو في البر، والبحر، والجو!

العدو يطبق على الاقتصاد، والصناعة، وما هو أهم تشكيل العقل العربي وإذابة الشخصية الإسلامية ومقوماتها الحضارية!

تبدو الصورة قاتمة مظلمة...

ولكن من أشد ساعات ظلمة الليل، ينبثق الفجر...

إن السياسيين ورجال الاقتصاد وكثيراً من المفكرين في الدول الإسلامية لا يرون حلاً أو فراراً إلا الاستسلام، وعزاؤهم هو أنهم سيستحوزون على الجزء الأعظم من فئات المائدة، وهو وإن كان فتاتاً، إلا أنه يكفيهم وزيادة، وهم بعد رجال "الممكن"، وما من الممكن مناص، ورجال الأرقام، والأرقام لا تخطيء!

والأوروبيون والأمريكيون لا تخالجهم الشكوك في استسلام المنطقة بعد أن أطبقت عليها الشبكة واحتواها "مربع الإذابة" لأنهم يفهمون الإنسان ما بين "الإنسان الاقتصادي" الذي يعمل بوازع الربح وتحرك آليات السوق.. والإنسان "الفرويدي" الذي تحكمه الغريزة الجنسية، وتدفع به بعد عمل اليوم الشاق ولتعويض روتينية هذا العمل إلى إثارة عاطفية جنسية يجد في نهايتها الاسترخاء من توترات اليوم!

إن إنساناً مثل هذا لا بد وأن يستسلم بكلية إلى وازع الربح من ناحية وغريزة الجنس من ناحية أخرى، ولا يدور في ذهنه فكرة الثورة عليهما. والأوروبيون يتصورون بقية الناس كالأوروبيين.. ما أن يوضعوا بين وازع الربح وغريزة الجنس حتى يستسلموا.

ولكن الأوروبيين - بما فيهم من سياسيين ورجال اقتصاد - ينسون عاملاً هاماً يوجد لدى ناس المنطقة ولا يوجد لدى أوروبا، هو "الإسلام".

وإنما أهمله الأوروبيون المعاصرون لأن أوروبا "وثنية" لم يظهر فيها الأنبياء من أولى العزم ليعرفوها

على الله، وقام بذلك الفلاسفة والشعراء والأدباء الذين صنعوا "وجدان" أوروبا ودينها، أما المسيحية التي تدعيها، فليست إلا قناعاً، أو ثوباً احتفالياً تلبسه نصف ساعة كل أسبوع.. وقد كان السياسيون الأوروبيون في القرن التاسع عشر أكثر ذكاء ونفاذاً في فهم الأمور، فقدروا للدين في الشرق قدره، لكن السياسيين الأوروبيين اليوم استغرقتهم إنجازاتهم في التقنية والاتصالات وعلوم الفضاء والذرة والكومبيوتر.. إلخ فتصوروا أنه ما من قوة يمكن أن تقف في مواجهتها...

الإسلام اليوم هو خط الدفاع الأخير في مواجهة الإذابة...

لماذا؟..

لأن أهم ما يجب أن نحرص عليه الآن هو أن نرفض الإذابة، ونتحصن من تأثير عوامل الجذب، وأن نحفظ بشخصيتنا سليمة، وتفكيرنا موضوعياً، بحيث يمكن أن نفكر في الطريق التي يمكن أن ندفع بها هذه الجائحة، ورأسنا فوق الأمواج المتدفقة.

هذا هو أول وأهم ما يجب أن نحرص عليه...

وهذا هو ما لا نجده الآن إلا في الإسلام، لأن الإسلام هو أبرز مقوم لشخصيتنا المستقلة وإرادتنا الحرة، وهو الوحيد الباقي بعد أن فقدنا حريتنا السياسية واستقلالنا الاقتصادي.

إذ ما الذي يمكن أن يجعل لنا شخصية مستقلة محصنة من الإذابة؟..

قد يقال اللغة.. ولكن الإذابة تُقدم باللغة العربية أيضاً عبر الإذاعات الأوروبية والأمريكية.. ثم أن الصورة والنغم – وهما من أعظم معدات الإذابة ومؤثراتها – يتجاوزا اللغة، لأنهما تخاطبان العين والأذن مباشرة ودون محاورة.

واللغة العربية، بعد، هي بنت الإسلام، ولولا القرآن لتمزقت اللغة العربية أشلاء، ولأصبحت لهجات لا تفهم أو لغات مستقلة على مدار ألف وخمسمائة عام منذ ظهور الإسلام!

هل تكفي "القومية العربية" أو التكتلات الإقليمية (الاتحاد المغاربي/ مجلس التعاون الخليجي/ جامعة الدول العربية.. إلخ لقد أتضح تماماً أن هذه كلها لا تقوم على أساس، وتجارب الوحدة الفاشلة، وتعثر جامعة الدول العربية خير شاهد على ذلك!

العادات، التقاليد.. كلها مرنة يمكن أن تتطور وتساير ما لم ترتبط بحذر أقوى وأعرق منها، وليس إلا الدين...

في مواجهة هذا، نجد أن الإسلام يقدم الحماية المطلوبة كأفضل ما يمكن أن تقدم، بحيث لا يكون سداً أصماً، قد يغلبه الذكاء، ولكن سداً واعياً ذكياً يمكن أن يمتص العناصر المغذية، المفيدة في الحضارة الأوروبية، وينفي خبثها في الوقت نفسه.

إن الإسلام - وهذه ميزته - لا يصد عادية الإذابة فحسب، ولكنه يغرس قوة في نفس الإنسان، ويفتح له أبواب وسبل الحلول.

ذلك لأن الإسلام يعرض الله تعالى وما يشق منه من قدرة على الخلق، وكمال في الإبداع، وقيم ومثل عليا من حب أو عدل أو خير أو سلام، وما يرسيه من سنن يسير عليها الكون والمجتمع، وما يرمز إليه من إطلاق وخلود وموضوعية يحن إليها الإنسان الضعيف الممزق، كما يحن الابن لأمه التي من رحمها ولدته، وعلى صدرها أَرْضَعْتَهُ، وفي أحضانها حمته.

يجد الرسول الذي يجسد المثل الأعلى، قائداً ومشرعاً وحاكماً وأباً وزوجاً ورسولاً إلى العالمين... يجد تلك الكوكبة من الصحابة التي ظفرت من التقدير بما لم تظفر به كوكبة أخرى في التاريخ "أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم"... إنهم الذين خلفهم الإسلام خلقاً جديداً، وأوجد فيهم أبا بكر وعمر وعلي وأبا عبيدة وخالد بن الوليد...

يجد منظومة من المبادئ والأصول وضعها الإسلام وتجري معادلة دقيقة، وتسوية محكمة بين الفرد والمجتمع والطبيعة، تحقق السكينة في الفرد، والسلام في المجتمع، والتوافق مع الطبيعة، وتصنع للحياة غاية. أين يجد إنسان هذه المنطقة، أو إنسان العالم الثالث المستهدف للإذابة عوضاً عنه أو بديلاً منه؟ وأين يجد الشمول والأحكام والعراقة التي للإسلام؟.

إن الإسلام وحده هو القوة الباقية التي يمكن أن تعصم إنسان المنطقة من إذابة العالم "التكنتروني".

كيف...؟

أولاً - هو يحول دون أن يصاب المسلم بصدمة الانبهار، تلك الصدمة التي تجعله "كالموقوذة" لا يكاد يقف على قدميه.. إن المؤمن بالله حقاً لا يدهشه ولا يبهره أي شيء آخر، لأنه من خلق الله، ومن ثم فإن المسلم يحتفظ بذهنه صافياً، وبتفكيره سليماً، يعمل عقله الإيماني، وليس ثمة تعارض ما بين العقلانية والإيمان، بل إن الإيمان هو أول ما تسلم به العقلانية الموضوعية الحكيمة.

إنه بفضل إيمانه يستطيع أن يحدد موقفه ويتخذ قراره أمام هذا السيل العرم الحديث.

قد يكون هو أولاً - مقاطعة الكثرة الكاثرة مما تدفع به الأسواق والأبواق. وهو إجراء وإن كان سلبياً، إلا أن المؤمن وحده هو الذي يستطيع أن يقفه، لأن إيمانه يعصمه من الإغراء وعوامل الجذب والانبهار.

ولا نجد حرجاً في أن نستشهد بواقعة من التاريخ البريطاني، لأن طبيعة الإيمان واحدة.. وهذه الواقعة تصور لنا كيف يحقق الإيمان غايته، تلك هي قصة "ليدي جوديفا" التي عاشت في القرن الحادي عشر وطلبت من الحاكم أن يرفع مظالمه عن سكان إقليمها في كوفنترى Coventry فوضع لذلك شرطاً هو أن تسير عارية في شوارعها، وقبلت ليدي جوديفا.. وفي اليوم الموعد أغلق تجار البلدة جميعاً محالهم، وأغلق أهلها شبابيك

بيوتهم بحيث أصبحت الشوارع خالية تماماً كما لو كانت الحمام الخاص لليدي جوديفا.. وفشلت مؤامرة الحاكم في أذلاها!.

وقد نذكر أيضاً تجارب غاندي في المقاومة والعصيان المدني التي أجبرت بريطانيا على التعاون معه والاعتراف به.

وأثر الإسلام أعظم من هذه جميعاً، لأن الإسلام منهج حياة، وهو يعترف بكل ما يؤثر على الحياة الدنيا ويفرزها ما بين صالح وطالح، حسن وسيء، خير وشر.. وهو يعترف أيضاً بكل ما هو صالح وحسن وخير ويعمل له.. ومن ثم فليس هو بالدين السلبي الذي يتجاهل الحياة، ولكنه الدين الإيجابي الذي يتعامل مع الحياة على هدى وبصيرة، ويستطيع أن يأخذ من الحضارة الحديثة ما يتفق معه، وهذه الحضارة ليست من إبداع أوروبا بالكامل، فقد أسهم فيها المصريون القدماء، كما أسهم فيها العلماء المسلمون، فهي حضارة البشرية، ومع أن أوروبا طوعتها وختمتها بخاتمها، فإن عملية الانتقاء، والتمييز والتمحيص لن تكون عسيرة.

بل يمكن أن نقول إن الإسلام يدفع المؤمنين به لمحاولة اختراق المجتمع الأوروبي والتأثير عليه.. لأن ما يعرضه من قيم هي ما يمكن أن ينقذ هذا المجتمع من بعض أزماته.

وبالنسبة لإسرائيل فهل يعقل أن توجد جزيرة صغيرة من خمسة ملايين وسط بحر هادر يزيد عن المائة مليون؟.

إن كل حقائق الجيوبوليتك وتجارب التاريخ تؤكد استحالة استمرار الروس الذين استقدمتهم إسرائيل من أقصى روسيا الباردة، لتضعهم في فلسطين الحارة.. ولو وضعت استراتيجية عربية إسلامية طويلة الأمد لإعادة هؤلاء الروس إلى بلادهم، فنجحت!

كان جمال الدين الأفغاني يقول "الاستعمار عارية" بمعنى أنه مهما وجد، فلا بد أن ينحسر!

وقد ظلت بعض الولايات الصليبية في "الشام" لمدة قرنين، وحكمت فرنسا الجزائر لقرن ونصف، وساد البيض جنوب أفريقيا طوال ثلاثة قرون... ولكن في النهاية لا يصح إلا الصحيح، ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [١٧ الرعد].

نحو إطار لا مركزي... لحماية وحدة الأمة الإسلامية (25)

أصبح من الواضح لكل ذي عينين، أن الولايات المتحدة الأمريكية بسلسلة من المناورات، وكننتيجة للتطورات السياسية الأخيرة التي أدت إلى تفكك الاتحاد السوفيتي الذي كان يتقاسم معها القوة والنفوذ وينافسها في السياسة الخارجية، قد انفردت اليوم بالقوة وتمكنت أخيراً من أن تصبح الدولة الوحيدة التي تهيمن - ولو لمدة ما - على شئون العالم!!

ولما كان من المعروف والمسلم به أن الولايات المتحدة الأمريكية تخضع لتأثير "اللوبي اليهودي" المسيطر على الإعلام والسياسة الأمريكية.

ولما كانت الولايات المتحدة وإسرائيل "حلف استراتيجي" وأن الولايات المتحدة تعلن في كل مناسبة أن تأييد إسرائيل هو خط من خطوط السياسة الأمريكية المقررة.

ولما كانت الولايات المتحدة من ناحية ثانية تهدف للسيطرة على منابع البترول في المنطقة العربية، وترى هذا ضماناً لصناعتها واقتصادها وأمنها...

لما كان هذا كله من الأمور المقررة في السياسة الأمريكية.. فإن انفرادها بتقرير السياسة الخارجية للعالم لا بد وأن يسير في اتجاه احتواء الدول العربية وتجريدها من كل عوامل القوة التي تمكن هذه الدول من أن تقف في وجه السياسة الأمريكية المدعومة لإسرائيل والطامعة في البترول، ولا بد أن نتوقع أن يصبح هذا الاتجاه هو الاتجاه المقرر الذي "تمليه المصالح" على الولايات المتحدة الأمريكية، ولا يمكن أن تقف أمامه التوسلات أو العواطف أو القيم أو المثل... إلخ.

لم يطل بنا العهد حتى بدأ تطبيق هذه السياسة في حرب العراق، بعد استرجاعها لغزو الكويت. وقد لا نجد مثيلاً في التاريخ الحديث يشبه "جبروت" الولايات المتحدة و صلفها وتصميمها على تدمير العراق والقضاء على كل المرافق والخدمات والصناعات تدميراً يجعل العراق يعيش ما قبل الثورة الصناعية - كما قالوا - مما يوضح أن القضية لم تكن أبداً (تحرير الكويت) وأن دعوى تحرير الكويت كانت وسيلة لاستلحاق الكويت (ومعها منطقة الخليج) وتدمير العراق.

إن الولايات المتحدة اليوم تمارس ما قامت به روما نحو قرطاجنة والشعار الذي رفعته "لا بد من تدمير قرطاجنة" ولم يهدأ بالها إلا عندما أصبحت قرطاجنة خلاء يهيم فيه البوم والغربان!!

(25) نشرت بمجلة "منبر الشرق" القاهرة عدد رمضان ١٤١٣ - مارس ١٩٩٣ ومن الحق أن نقول إن صاحب فكرة (إطار لا مركزي) هو الأستاذ إبراهيم الوزير المفكر اليمني البارز ورئيس اتحاد الشوريين التعاونيين باليمن.

قبل أن تنتهي آثار حرب العراق، بعثت الولايات المتحدة من ملفاتها القديمة قضية طائرتين اتهموا ليبيا بتدميرهما لإشراك بريطانيا وفرنسا في المؤامرة.. وعجزت كل العروض التي قدمتها ليبيا لتسوية الموضوع.. وبدأت العقوبات!!

ووسط المؤامرات التي تشن على ليبيا، بدأت الولايات المتحدة تعد العدة للعدوان على سوريا، وفيما بين ذلك ترسم السياسات التي توهن الصحوّة الإسلامية في كل مكان، في العدوان على البوسنة، ومحاصرة السودان، وتأليب القوى المضادة، ووضع العراقيل أمام المجاهدين في أفغانستان.. وقد أصبحت السياسة الدولية اليوم، كما كانت في القرن التاسع عشر، عندما كانت المؤتمرات الأوروبية تعقد لاقتسام آسيا وأفريقيا، أو لتعديل القسّمات السابقة وما يحدث في البوسنة مما يشيب له الولدان دليل آخر على ذلك.

من المسلم به أن الولايات المتحدة ما كان يمكن أن تقوم بهذه العريضة الدولية، لولا التطورات السياسية التي حرمت دول العالم الثالث من مناصرة الاتحاد السوفيتي الذي كان يجد مصلحته في معارضة السياسة الأمريكية.. ولكننا مع التسليم بهذا، فإننا نقطع بأن الولايات المتحدة ما كانت تجد الجرأة والصلف، لولا أن في النظم السياسية الداخلية للدول العربية فساداً، جعل القيادات في واد، والجماهير والقواعد في واد آخر.. وبهذا حرم القيادات من المناصرة الحقيقية للجماهير، كما سمح للقيادات بأن ترتكب أخطاء فاحشة وقرارات مقهورة أملتها العواطف أو المطامع والسياسات الفردية القصيرة النظر!!

نعم.. لا بد أن نعترف - للأسف الشديد - أن حكام معظم الدول العربية يتخذون القرارات المصيرية دون شورى حقيقية، ودون دراسة متأنية، ودون مناقشة لكافة أبعاد هذا القرار.. وأن هؤلاء الحكام أحاطوا أنفسهم بعصابات وبطانات من المتملقين أو أصحاب المصالح لا يألونهم خبالاً وعندما ظهرت العواقب السيئة لهذه القرارات الفردية باعت بأوزارها الشعوب والجماهير التي لم يؤخذ رأيها فيها، ولا كانت توافق عليها لو أخذ رأيها.

ولو كانت البناء الداخلي للنظم العربية سليماً والصفوف متماسكة، والعلاقات ما بين الحكام والشعوب تتسم بالشورى والديمقراطية لما استطاعت أمريكا أن تصل إلى طائل، وقد هزمت من قبل في فيتنام، كما هزم الاتحاد السوفيتي أمام المجاهدين في أفغانستان.

أمام هذا الواقع المحزن، وما يؤذن به المستقبل من ويلات تهدد البقية من الكيان العربي والإسلامي وجدنا أن علينا أن نبدع وسيلة نقف بها هذا الطوفان حتى يؤذن الله بتغيير الأحوال ويظهر على الساحة الدولية من يناطح الولايات المتحدة الأمريكية ويشغلها!!

والحل الوحيد أماننا هو أن نوجد إطاراً من الهيئات والدعوات والمفكرين.. إلخ الذين يكون الإسلام محور دعوتهم، يعمل بالوسائل الجماهيرية ويستخدم الدبلوماسية الشعبية ويحول - أو على الأقل يؤخر - هذا العدوان الذي يهدد بالتهام الدول الإسلامية.

وليس أمامنا خيار، لأن مناشدة النظم الحاكمة أصبحت لا تجدي، رغم ما تراه بأعينها من جلاء سياستها، والمشكلات التي حاقت ببعض الدول العربية نتيجة لاستبداد حكامها، فهذا باب مغلق للأسف الشديد، وليس هناك فائدة من مناشدة الضمير الدولي، واللوازم بالشرعية الدولية المزعومة، وحتى هذا فلكي ينجح، لا بد من هيئات قوية منظمة تقوم به وتمارس ضغطاً في سبيله.

ونعتقد أن القضية الحقيقية أمامنا ليست هي القرار نفسه، ولكنها التوصل إلى عوامل نجاح هذا القرار، خاصة وقد سبقته تجارب فاشلة بحيث ظن أن الثمرة الوحيدة التي تتمخض عنها المؤتمرات هي اتخاذ قرارات وتوصيات على الورق، ولا تساوي الحبر الذي كتبت به.

هذه هي القضية الحقيقية، ولكن تجاربنا العديدة الماضية في أسباب إخفاق المؤتمرات والتكتلات السابقة، تجعلنا نعمل على تجنبها في محاولتنا الجديدة، بحيث لا تتكسر ولا تلحق بأخواتها السابقة.. وسنعرض فيما يلي الضمانات التي تكفل نجاح المشروع:

من أهم الضمانات، أن نتقبل الهيئات والدعوات الإسلامية بعضها بعضاً، على علاقتها، كما هي، فلا نرفض واحدة لأنها لا تتفق معنا في بعض ما تذهب إليه، ولا نحكم عليها بالخطأ لذلك.. إن المهم هو شيء واحد، هو أن تؤمن بالشعار الجامع (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فما دامت تؤمن به فقد دخلت حظيرة الإسلام واكتسبت عصمته أما ما وراء ذلك من تفاصيل وخلافات فلا تضر.. فضلاً عن أنها أمر حتمي متأتي من تفاوت الإفهام والتصورات، ومن اختلاف البيئات والملابسات. وقد تقبل الرسول الاجتهادات المختلفة وأقر أن يحكم الإنسان فيما لم يرد فيه قرآن أو سنة باجتهاده، بل وجعل للمجتهد المخطئ حسنة.. ورفض الإمام مالك أن يحمل الناس على الموطأ، وأثر أن يترك كل مصر وما لديهم من علم، وليس هناك ما هو أعظم في تأصيل الاختلاف بين الناس، وأنه ضرورة لا مناص منها من قول الله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [٤٨ المائدة] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود آية ١١٨].

من أجل هذا لا بد أن نتنازل عن فكرة الوحدة، أو حتى الاتفاق في الجزئيات والتفاصيل، وما يجوز لنا أن نتمسك به أنهم جميعاً مسلمون.. هذا ما يتوفر لهم بالإيمان بالشهادتين، وأنهم أيضاً حريصون على إنقاذ أمة الإسلام، وحمايتها من الغارة الأوروبية/ الأمريكية/ الإسرائيلية.. وهذا أمر تكنه الضمائر، ولا يمكننا الحكم عليه إلا بالمواقف المعلنة، والعمل الثابت.

ونحن نرجو إخواننا جميعاً أن يدرسوا بعمق مواقف وسياسات الرسول صلوات الله وسلامه عليه بدءاً من صحيفة المودعة التي وضعت الحجر الأول في سياسة الدولة الإسلامية، حتى الحديدية، وفتح مكة.. وكيف أن الضرورات كانت تلزم الرسول التعامل معها بسعة أفق، وبمرونة، وبتخاذ القرارات التي كان الصحابة أنفسهم لا يلمون أولاً بحكمتها.. إن الرسول يعرض لنا.. رجل الدولة. كأفضل وأروع ما يكون..

فليكن لنا في رسول الله أسوة حسنة، ولنتخلص من التعصبات والتشنجات التي لم يأت بها الإسلام، ولا يتسع لها، أو يسمح بها العصر والظروف الحرجة القاسية التي تمر بها أمتنا الإسلامية.. وليقبل كل واحد منا الآخر، على ما هو عليه فنحن جميعاً نعمل من أجل هدف واحد...

وقد يذكر في هذا الصدد فكرة التقارب بين الدعوات الإسلامية، وقد كانت فكرة التقارب مطلوبة في الأربعينات ولكنها الآن ليست أفضل ما يطلب، لأنها صعبة ومحدودة النجاح لتمسك كل فريق بما لديه، ولعدم الاتفاق على المعيار الموضوعي للحكم بينها، وليست هي الآن المطلوبة وإنما المطلوب هو الاتفاق السريع على صد العدوان.. وعندما يهدد وجود الدولة الإسلامية العدوان فلا يجوز أن نضيع الوقت للتقريب بين الشيعة والسنة أو بين الزيدية والحنابلة.. إلخ.

ما دامت كل هيئة ستتقبل كل هيئة أخرى بروح طيبة واحترام لحرية الفكر، وتقدير لضرورات الاختلاف، فلن يكون هناك داع لمحاولة هيمنة هيئة على الهيئات الأخرى، أو فرض نفسها على الإطار المطلوب.. إن هذا لا يحدث إلا عندما تكون الهيئة موفدة من حكومتها للترويج لسياسة هذه الحكومة، وتنفيد ما عداها ومقاومة المعارضين.. وسيؤدي هذا لا محالة إلى فشل المشروع وتمزقه.. ولهذا فمن الضمانات الهامة أن تكون الهيئات والدعوات المؤسسة للإطار هيئات شعبية مستقلة عن حكوماتها لا تتخذ من عضويتها في الإطار وسيلة لترويج سياسة حكوماتها.. ولقد شاهدنا مؤتمرات عديدة توافرت لها كل مقومات النجاح تقريباً، باستثناء هذا العامل، فلم تغن عنها شيئاً وباعت بالفشل في النهاية.

نحن لا نريد أبواً للحكومات، والسنة للحاكمين، نحن نريد إيماناً إسلامياً بقضية هي أقدس القضايا قاطبة، لأنها قضية الأمة الإسلامية.. وقد ترتكب حكومة ما خطأ وفي هذه الحالة يجب على الإطار بما فيه هيئات هذه الدولة أن تطبق الأمر النبوي "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" ونصرته ظالماً بكفه عن الظلم. وهذا وإن كان يبدو للوهلة الأولى مسيئاً إلى هذه الحكومة، فإنه في المدى البعيد في صميم مصلحتها، إذ لو نُقِبِل هذا الخطأ، لقاد إلى خطأ آخر، فثالث حتى تأتي النهاية المحتومة.. وعندئذ لا ينفع أن نقول:

"ألا ليتنا كنا، إذ الليت لا تغني".

مما يتفق مع الضمانات السابقة وروح هذا الإطار، أن يأخذ شكلاً لا مركزياً في إدارته وسياسته، إذ لا يمكن أن يقوم إطار دولي يعمل بروح ديمقراطية إلا على أساس لا مركزي إذ لو كان مركزياً لتطلب هذا بالطبع هيمنة ورئاسة أحد أعضائه على بقية الأعضاء وهو أمر استبعدناه، وقد كان سبب فشل معظم التكتلات الإسلامية في العصر الحديث، وفي العصر القديم أيضاً.. ولو أمكن إدارة الخلافة إدارة لا مركزية، لما حدث الانقسام وظهور الدول الإسلامية التي أعلنت استقلالها عن الخلافة في مصر والأندلس وإيران فدرس التاريخ هو أنه لا يمكن إدارة هيئة دولية على أساس مركزي، لأن المركزية لا تسمح بالمرونة.. ونود أن نشير أن فكرة اللامركزية كانت هي الحل الذي انتهى إليه أحرار العرب في مستهل القرن العشرين كمحاولة لإبقاء الدول العربية في إطار الخلافة على أن يكون لها نوع من الاستقلال الذاتي، وتكون حزب

اللامركزية سنة ١٩١٠، واتخذ من القاهرة مقراً له، وكان نائب رئيسه هو السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، وللأسف فإن غلاة الترك الذين أرادوا تترك الدولة رفضوا عرض العرب الذين أرادوا أن لا يفصموا علاقتهم بدولة الخلافة رغم كل الأخطاء التي وقعت فيها الدولة التركية!!..

ولعل أقرب الهيئات إلى الإطار المقترح هي محاولة عبد الرحمن الكواكبي التي أخذت شكل مؤتمر أم القرى وسجلها في كتابه (أم القرى) مضابط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة عام ١٣١٦.. وقد ضم المؤتمر مندوبين من مختلف الدول الإسلامية شرقاً وغرباً وندارسوا في أسباب ضعف المسلمين، وما هي طرق النهضة بهم.. وها هو ذا قرن كامل من الزمان قد أوشك أن يمضي على هذه المحاولة المجهضة، ولو رزقت النجاح أو قامت ما يماثلها فلربما خلص العرب والمسلمون من بعض ما حاق بهم من الويلات.

والآن.. نأتي إلى النقطة الهامة، إلا وهي رسالة ودور هذا الإطار، والغاية التي من أجلها تأسس، والوسائل التي ينتهجها لتحقيق هذه الغاية...

أما الغاية، فهي الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وحمايتها من غائلة الهجوم الذي تتعرض له على أيدي قوى الاستكبار العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتعميق الصلات فيما بينها بمختلف الطرق بتيسير المواصلات الجوية والبرية والبحرية وتكثيف التبادل الثقافي وعقد اللقاءات... الخ وتدعيم التعاون الاقتصادي بينها بحيث يمكن أن تكفي نفسها بنفسها ولا تتعرض لهزات مالية، ولا يؤثر عليها حصار اقتصادي، ولا تضطر لتسول غذائها وكسائها من الآخرين.. إن البلد المسلم أولى بالقرش المسلم...

وماذا في يد الإطار المقترح لتحقيق هذه الأهداف؟

إن الإطار، وإن لم يملك جيشاً أو أسطولاً، فإنه لو بني على الأساس السليم المنشود وصدقت النيات والعزائم، يمكن أن يمارس ضغوطاً قوية ويقوم باتصالات فعالة بحيث يسمع العالم صوته، ولا يكتفي في هذا بالكلام، بل بما يتخذه من إجراءات يملكها...

إن النقابات العمالية والمهنية، ورجال الإعلام، والكتاب، والصحفيين، والفنانين يملكون دون شك قوى ولديهم وسائل فعالة على المستوى القومي والعالمي فلماذا لا تكون الاتحادات فيما بينها لتنسيق سياساتها؟

إن الأموال التي يملكها أفراد مسلمون وعرب في المصارف الأجنبية تبلغ مئات المليارات... وإذا أمكن إقناع بعض هؤلاء باستثمار أموالهم في الدول الإسلامية بدلاً من وضعها في أيدي أعداء الإسلام... فإن اقتصاديات العالم الإسلامي يمكن أن تنتعش...

وماذا على المسلمين، أفراداً وحكومات، لو استثمروا مائة مليار دولار - وهو مبلغ يمكن أن يوفره عشرة من أثرياء المنطقة النفطية - لمد شبكة من الخطوط الحديدية أو المواصلات في السودان والنهضة بتصنيعه، إنهم لو فعلوا لو فروا للعالم الإسلامي كله غذاءه، ولنهضوا بالسودان، ولأوجدوا منه دولة تتنافس كندا والولايات المتحدة في إنتاج الحبوب والقطن...

ماذا لو استثمر كذا ملياردير مسلم أموالهم في دور نشر تعمل على المستوى الإسلامي، وتصل العالم الإسلامي بعبءه ببعض ثقافياً أو وكالة للأخبار.. أو أقاموا شركة للملاحة الإسلامية تعمل على تيسير الرحلات والزيارات السياحية ما بين الدول الإسلامية بعضها بعضاً بحيث يتحقق قدر من التواصل يمكن مع الزمن أن ينمو ويكبر...

هذه كلها مشروعات اقتصادية مجزية.. وإذا تعرضت لبعض المخاطر، فقد تكون هذه المخاطر أقل من المخاطر التي تتعرض لها الودائع في البنوك الأمريكية نتيجة لهبوط قيمة الدولار أو القيود التي تحيط بها عمليات السحب، وهي بعد تصب في تيار التقارب الإسلامي..

دستور إسلامي وضعه أحد أفراد النظام الخاص للإخوان المسلمين

في الأربعينات

في عام ١٩٥٠، عندما نظرت محكمة جنايات القاهرة القضية التي حملت اسم "قضية السيارة الجيب" (قضية النيابة العمومية رقم ٣٣٩٤ الوائلي، سنة ١٩٥٠ ورقم ٢٢ سنة ٥٠ كلي) أثارت النيابة وجود وثيقة حررها المتهم الأخير وضبطت في مركز الإخوان المسلمين تضمنت تصورًا للحكم الإسلامي اقترح كاتبه أن يكون النظام "جمهوريًا اشتراكيًا" وأن ينتخب رئيس الجمهورية مدى الحياة، وارتكزت عليها في إصااق تهمة قلب نظام الحكم بالمتهمين.

والمشروع الذي قدمته النيابة للمحكمة لا يتسم بعمق أو تماسك، ولا حتى يأخذ شكل البحث العلمي أو الأكاديمي.. ولكن أهميته لا تأتي من قيمته العلمية، وإنما من الاتجاه العام الذي يختلف كل الاختلاف عن الاتجاهات الذائعة الآن، عن دستور إسلامي.. ومن هذه الناحية فإنه يصور التحول الذي حدث للفكر الإسلامي خلال الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٨٠، وهذا هو "مربط الفرس" كما يقول المثل.. وهي النقطة التي ستكون محل تعليقنا بعد عرض التصور نفسه، والتمهيد له بكلمة عن "قضية عربة الجيب".

قضية عربة الجيب:

هذه القضية التي تعود أحداثها إلى ١٥/١١/١٩٤٨ والتي نظرتها المحكمة في ديسمبر ١٩٤٩ ويناير وفبراير ١٩٥٠، تعد من أكبر القضايا السياسية، ومن نقط التحول في تاريخ الإخوان المسلمين، لأنها وضعت ببساطة، وبصورة غير متوقعة أو منتظرة، وبحكم المصادفة، كل وثائق وأوراق "النظام الخاص" في أيدي البوليس السياسي الذي ما إن اطلع عليها حتى تكشف الجوانب الخافية لنشاط النظام الخاص للإخوان المسلمين.. وفسر عددًا كبيرًا من الأحداث التي وقعت آنذاك.

وقد تحدثت المحكمة التي نظرت القضية عن ملابس ضبطت "عربة الجيب" فقالت (في الحكم الذي أصدرته):

"ومن حيث إنه في يوم الاثنين ١٥ نوفمبر ١٩٤٨ حوالي الساعة ٢،٤٥ بعد الظهر، كانت سيارة من طراز "جيب" يركبها بضعة أشخاص تسير ببطء في شارع جنينة القوارر بجهة الوايلية ووقفت أمام المنزل رقم ٣٨ فاشتبه البوليس الملكي صبحي علي سالم - الذي كان مارًا في ذلك الوقت - في أمرها إذ لم تكن تحمل أرقامًا، وكان بها صندوق وحقائب في وقت كثرت فيه حوادث النسف في القاهرة، فأمر راكبيها الذين كانوا نزلوا منها بأن يلزموا أماكنهم.. ولكن هؤلاء فزعوا لهذه المفاجأة، وركنوا إلى الفرار تاركين السيارة بما فيها، واتخذ اثنان منهم سبيلهما ناحية شارع عبده باشا فتبعهما وهو يصيح بأنها "صهيونيان" يحملان

قنابل، فانضم إليه بعض المارة في تعقبهما حتى تمكنوا من القبض عليهما، وتبين أنهما المتهمان الحادي عشر والثاني عشر أحمد عادل كمال، وظاهر عماد الدين.

"وضبطت في هذه السيارة كميات من المواد النافسة من أنواع مختلفة كالجليجنايت والـ بي تي أن وعشرات من القنابل وست لفات من فتيل الإشعال المؤمن وثلاث لفات من فتيل الإشعال البرتقالي ومدفع "ستن" وثلاث خزانات له وسبعة وعشرون مسدسًا من أنواع مختلفة وأربعة خناجر ومئات الطلقات النارية وعدد كبير من المتفجرات الكهربائية وست ساعات زمنية وقناع أسود ولغم.. كما ضبط أيضًا بها أوراق عديدة لها أهميتها سيأتي بيانها فيما بعد..".

ضبط مصطفى مشهور وحافضة أوراقه:

"وبعد نحو ثلاثي ساعة من ضبط هذه السيارة، شوهد شخص يحمل حافضة من جلد يسير في شارع عبده باشا متلفتًا مرتبكًا، فاسترعى ذلك نظر أحد المارة الذي ظن أنه قد يكون من ركاب السيارة الذين فروا إذ كان يماثلهم في الملبس (يرتدي صديري دون جاكته) فقبض عليه وساقه إلى قسم الشرطة وتبين أنه المتهم الثاني مصطفى مشهور، وأن هذه الحافضة تحوي أوراقًا كثيرة لها أهميتها ولها صلة بالأوراق التي ضبطت بالسيارة..".

واستطردت المحكمة فوصفت كيف أن تفتيش منزل مصطفى مشهور أدى إلى القبض على عدد آخر من المتهمين وأن هذا بدوره أدى إلى القبض على عدد ثالث حتى بلغ عدد المتهمين ٣٢ شخصًا ما بين مهندس ومحامي وطبيب وتاجر.. إلخ ضموا "نجوم" النظام الخاص وعلى رأسهم عبد الرحمن السندي ومصطفى مشهور والدكتور الملط.. إلخ وقدمتهم النيابة بتهمة المشاركة في اتفاق جنائي الهدف منه الاستيلاء على الحكم بالقوة.. إلخ.

وترافع عن المتهمين جهايزة المحامين أحمد رشدي وظاهر الخشاب وسعيد رمضان وعبد المجيد نافع وحسن العشماوي وحمادة الناحل وعلي منصور وفتحي رضوان وزكي عريبي ومحمد هاشم باشا، وهنري فارس والدكتور محمد مندور وعبد المجيد عبد الحق ومصطفى المنزلاوي وعمر التلمساني.. إلخ.

وكان حكم المحكمة مفاجأة ودليلاً على ملاحظة القضاء المصري وقتئذٍ للأصول القضائية وعدم انسياقه وراء الدعايات أو التيارات إذ برأت معظم المتهمين وحكمت على ستة بالسجن ثلاث سنوات وعلى ١١ متهمًا (منهم عبد الرحمن السندي) بالسجن سنتين، وعلى متهم بالحبس لمدة سنة.. وأهم من هذا أنها أشادت بالإخوان المسلمين وأهدافها السامية وتلمست الرحمة لنيل غاية المتهمين فقالت:

"وحيث إنه سبق للمحكمة أن استظهرت نشأة جماعة الإخوان المسلمين ومسارعة فريق كبير من الشباب إلى الالتحاق بها والسير على المبادئ التي رسمها منشئوها والتي ترمي إلى تطهير النفوس مما علق أو عساه أن يعلق بها من شوائب وإنشاء جيل جديد من أفراد متقنين ثقافة رياضية عالية مشربة قلوبهم بحب وطنهم والتضحية في سبيله بالنفس والمال، وقد كان لا بد لمؤسسي هذه الجماعة لكي يصلوا إلى أغراضهم أن

يعرضوا أمام الشباب مثلاً أعلى يحتذونه وقد وجدوا هذا المثل في الدين الإسلامي وقواعده التي رسمها القرآن الكريم والتي تصلح لكل زمان ومكان، فأثاروا بهذا المثل العواطف التي كانت قد خبت في النفوس وقضوا على الضعف والاستكانة والتردد وهي الأمور التي تلازم عادة أفراد شعب محتل مغلوب على أمره - وقام هذا نفر من الشباب يدعو إلى التمسك بقواعد الدين والسير على تعاليمه وأحياء أصوله سواء أكان ذلك متصلاً بالعبادات والروحانيات أو بأحكام الدنيا، ولما أن وجدوا أن العقبة الوحيدة في سبيل إحياء الوعي القومي في هذه الأمة هو جيش الاحتلال الذي ظل في هذا البلد قرابة سبعين عاماً تخللته طائفة من الوعود بالجلاء - كما كان بين المحتل وبين فريق من الوطنيين الذين ولوا أمر هذا البلد مباحثات ومفاوضات على إقرار الأمور ليخلص الوادي لأهله، ولم تنته المفاوضات والمجادلات الكلامية إلى نتيجة طيبة - ثم جاءت مشكلة فلسطين وما صاحبها من ظروف وملابسات.

"لما كان كل هذا، اختل ميزان بعض أفراد شباب جماعة الإخوان، فبدلاً من أن يسيروا على القواعد التي رسمها زعماءهم عند إنشاء الجماعة والتي كانت تؤدي حتماً إلى تربية فريق كبير من الشعب وتثقيفهم وإعلاء روحهم المعنوية، بدلاً من السير على هذه المبادئ، أرادوا أن يختصروا الطريق ظناً منهم أن أعمال النسف تبلغ بهم أهدافهم من سبيل قصير، فاتحدت إرادتهم على القيام بأعمال قتل ونسف وغيرهما مما قد لا يضر المحتلين بقدر ما يؤذي مواطنيهم... وذهبوا في سبيل هذا مذهباً شائكاً منحرفين عن الطريق السوي الذي رسمه لهم رؤسائهم والذي كان أساساً قوياً لبلوغهم أهدافهم بالطرق المشروعة...".

"وحيث إنه من هذا يبين للمحكمة أن أفراد هذه الفئة الإرهابية لم يفتروا الجريمة وإنما انحرفوا عن الطريق السوي فحق على هذه المحكمة أن تلقنهم درساً حتى تستقيم أمورهم ويعتدل ميزانهم... على أن المحكمة تراعي في هذا الدرس جانب الرفق فتأخذهم بالرأفة تطبيقاً للمادة ١٧ عقوبات نظراً لأنهم كانوا من ذوي الأغراض السامية التي ترمي أول ما ترمي إلى تحقيق الأهداف الوطنية لهذا الشعب المغلوب على أمره.. (انتهى).

كما أن المحكمة عندما تعرضت للحديث عن الإخوان المسلمين استشهدت بأقوال الإمام الشهيد حسن البنا في رسالته "مشكلاتنا الاقتصادية والدستور" وقالت:

"وحيث إنه يظهر جلياً من أقوال المرشد العام أن الجماعة لا تتأهض الحكم القائم في مصر، بل تراه متفقاً مع النظم الإسلامية، وأنها كانت تهدف إلى تحقيق نظام شامل والإصلاح طبقاً لأحكام الدين الإسلامي وبالطرق الدستورية المعروفة طبقاً لما جاء في قانونها الأساسي السابق تفصيله.. إلخ".

نرجو أن لا نكون قد أطلنا، والحقيق أن هذه الفقرات هامة لأنها تصور وجهة نظر المحكمة نحو الإخوان.

فمع أن المحكمة كانت متعاطفة مع الفكر الإسلامي (أصبح رئيسها بعد ترك الخدمة من الشخصيات

الإخوانية، وكان هو محامي أسرة آل البنا في قضية تعويض).. إلا أنها ما كان يمكن أن تأتي بغير ما تضمنته الأوراق.. كما كان لا يمكن أن تتجاهل مستندات تقدمها النيابة ذات مصداقية تدين هذه الجماعة بإتباع طرق غير مشروعة.. وإلا شاب هذا حكمها.. والحقيقة أننا لا نرى في كتابات الإمام الشهيد حسن البنا إشارة واحدة عن "حاكمية إلهية" أو إطلاق الكفر على الديمقراطية والنظم النيابية الأخرى.. على العكس إنه كان يرى أنها كلها تدخل في إطار نظام يتفق مع الإسلام.. فالاختلاف الذي سنراه ما بين تصور عضو النظام الخاص الذي وضع النظام الإسلامي" عن تصورات الدعوات الإسلامية التي جاءت بها الثمانينات يتوازى مع اختلاف فكر الأستاذ البنا عن أفكار سيد قطب والمودودي وجماعات "الرافضة الجديدة".

مشروع النظام الإسلامي في العصر الحاضر:

قدمت النيابة الوثيقة التي كتبها المتهم الثاني والثلاثون سليمان مصطفى عيسى قائلة إن المتهم صاغها في تسع مواد نص فيها صراحة على أن يكون الحكم جمهورياً، وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة، وفهم من عبارات المشروع الأخرى أن المتهم قصد إلى أن تكون هذه الجمهورية اشتراكية، وبعبارة أخرى فإن المتهم قد رمى بمشروعه هذا إلى إنشاء نظام دكتاتوري اشتراكي ينصب فيه مرشده العام دكتاتوراً على البلاد.

وكان النيابة لم تكتف بتهمة قلب نظام الحكم، بل أيضاً حددت أن يكون "اشتراكياً" في فترة كانت الاشتراكية هي أكبر تهمة يمكن أن تلتصق بتنظيم، فضلاً عن أنه يخالف ما كان يدعيه البعض من تقارب بين الإخوان والسراي، أو ما بين الإسلام والملكية.

وهذا هو ما سجلته النيابة في مذكرتها عن هذا المشروع عند حديثها عن المتهم الثاني والثلاثون سليمان مصطفى عيسى:

"سبق أن أشرت عند استعراض الوقائع وعند الكلام عن تهمة التآمر على قلب نظام الحكم إلى مشروع النظام الإسلامي في العصر الحاضر" الذي حرره هذا المتهم.

وضبط هذا المشروع في دار المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين عند تفتيشه عسكرياً عقب صدور الأمر بحلها.

وقد صاغه المتهم في تسع مواد نص فيها صراحة على أن يكون الحكم جمهورياً وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة ويفهم من عبارات المشروع الأخرى أن المتهم قصد إلى أن تكون هذه الجمهورية اشتراكية.

وبعبارة أخرى فإن المتهم قد رمى بمشروعه هذا إلى إنشاء نظام دكتاتوري اشتراكي ينصب فيه مرشده العام دكتاتوراً على البلاد.

وإليك نص هذا المشروع:

"النظام الإسلامي في العصر الحاضر"

الإسلام والعدالة الاجتماعية:

إن البرنامج الصحيح ضروري لحياة أمة من الأمم حياة قوية عزيزة. هذا شيء جميل ورائع حقاً ولكن أجمل منه وأروع أن يقوم رجل نزيه على تنفيذ هذا البرنامج حتى لا يجعل منه حبراً على ورق. وإن حاجتنا إلى رجل ينقذنا من الهاوية التي نسير نحوها بخطى سريعة ليس أشد إلحاحاً من برنامج معطل لا يساوي المجهود الذي بذل من أجله.

إهداء إلى اليساريين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٣]

يجب أن تمتلأ نفوسنا بالثورة على هذه النظم الفاسدة البالية وإن اشتد لهيب هذه الثورة فستنتقل من نفس إلى نفس ومن قلب إلى قلب "صبراً آل يسر فمعدكم الجنة".
ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

التشريع في النظام الإسلامي يعتمد على ثلاث مراحل.

(١) القرآن الكريم مرحلة درجة أولى.

(٢) السنة مرحلة درجة ثانية.

(٣) الاجتهاد مرحلة درجة ثالثة.

وفي ذلك قال رسول الله ﷺ عندما أرسل معاذاً إلى اليمن قال له "كيف تصنع إذا عرض لك قضاء" قال "أفضى بما في كتاب الله" فقال له الرسول "فإن لم يكن في كتاب الله" قال "فسنة رسول الله" قال له "فإن لم يكن في سنة رسول الله" قال "اجتهد رأيي ولا ألو" قال معاذ فضرب رسول الله صدري وقال "الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله" رواه أبو داود والترمذي.

الحكومة في الإسلام:

المادة الأولى: الحكومة الإسلامية جمهورية وتتولى الحكم بطريق الانتخاب العام لأن الحقوق السياسية لا تورث. ويستفاد ذلك من قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

المادة الثانية: الحكومة الإسلامية ديمقراطية نيابية ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

المادة الثالثة: رئيس الجمهورية ينتخب لمدى الحياة وذلك لسببين:

(١) لئلا يكثر الطامعون في الحكم إذا كان الانتخاب كل مدة معينة.

(٢) لئلا يسيء الحاكم استعمال سلطته عندما يرى أنه قد ينحى عن كرسي الخلافة وحتى يكون هناك استقرار في البلاد.

المادة الرابعة: يعزل رئيس الجمهورية إذا أهمل في شأن من شؤون الرعية أو قصر، إن الحاكم ما هو إلا وكيل عن الأمة ليحقق العدل بينها ويعمل على رفاهية الشعب وينفذ أحكام دينها. فإذا سقط بند من هذه البنود انتفت الوكالة وسقط حق الوكيل في مزاوله هذه الوكالة.

المادة الخامسة: السلطة القضائية مستقلة استقلالاً تاماً عن السلطة التنفيذية أي أن الحاكم ليس له أن يتدخل لمصلحة أحد ولكن عليه أن ينفذ ما توصى به السلطة القضائية - وفي هذا المعنى ما روى من أن أحد المقربين للسلطة صلاح الدين استعداه على رجل فقال له الخليفة "ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاضي يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه مشكلة. وإنما أنا عبد الشرع وشحنته والحق يقضي لك أو عليك".

أما كيف نراقب أعمال الحاكم فهو بتكوين رأي عام قوي يعرف حقه فلا يفرط فيه ويحاسب الحاكم حساباً عسيراً من وقت الخليفة الثاني وقال "من رأي منكم عوجاً فليقومه" فوقف أعرابي وقال "لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بسيفونا".

المادة السادسة: الحكومة مسئولة مطلقاً عن حماية جميع أفراد الدولة حماية عامة ولا تقتصر الحماية العامة على الحماية الخارجية والداخلية وأداته الجيش والبوليس ولكن مسئولة أيضاً عن حمايته من الفقر والجهل والمرض.

قال سيدنا عمر في خطبة له استشهد بها مكرم عبيد باشا في البرلمان "المرء وحاجته والمرء وعمله" والله ما أحد أحق بمال الدولة من أحد والله ما أنا أحق به من أحد فلكل أمريء في مال الدولة نصيب فالرجل وبلاؤه والرجل وقدره والرجل وحاجته إن في مصر قوم يعيشون... وهناك آخرون يمشون حفاه عراه يشربون ماءهم كدرًا وطيناً. إن هناك تخلخل في توزيع الثروات وهذا مما لاشك فيه غبن فادح ويقولون إن نظامنا الرأسمالي تتوافر فيه المنافسة الحرة والله يعلم أنهم لكاذبون، لأن المجتمعات الرأسمالية تنقسم إلى طبقات غير متنافسة ويترتب على ذلك أن يبقى كثيرون من أفراد الطبقة الدنيا خاملين على حين أنه لو توافرت لهم الفرص لأمكن أن يفيد منهم المجتمع فائدة لا يمكن المغالاة في مقدارها ولا يرجع خمول أفراد هذه الطبقة إلى خطئهم بقدر ما يرجع إلى انعدام الفرص أمامهم أو جهلهم لهذه الفرص.

ولكي نصل إلى العدالة الاجتماعية سنتبع مرحلتين مرحلة تتمشى مع روح الإسلام ومرحلة مادية تتمشى مع قوانينه المادية.

أولاً: التضامن الاجتماعي: - إن الفقر شيء نسبي ولا يعقل أن يوجد مجتمع كله أغنياء فالفلاح المصري على تعاسة معيشته محسود عليها من الفقير الهندي جاء الإسلام فجعل من هذه الأمم المفككة أسرة واحدة كبيرة فإذا حلت بإنسان نكبة فإنه سيد من يقاسمه آلامه المادية والمعنوية ويمد إليه يد المساعدة فكان كل فرد في هذا المجتمع بمثابة شركة تأمين للأفراد الآخرين فإذا لم تقدم له هذه الشركة يد المساعدة فهناك مئات الشركات بل ملايين لن يعدم أن تمد له أحدًا هامًا يحتاج إليه وذلك نتيجة للحب بين أفراد المسلمين والإخوة بينهم وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الحديد: ١١] "وقد رتب الإسلام ذلك ترتيبًا تصاعديًا وهذا رأي منطقي فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥] وقوله: ﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ويكون التضامن الاجتماعي نتيجة للتربية والشعور بالمسؤولية ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء... "هذا جميل جدًا ولكن هناك نفوسًا لمهمة وستتهرب مما لا شك فيه من هذه المهمة الاختيارية وأن الله ليزع بالسلطات ما لا يزع بالقرآن ففرضت ضرائب أخرى؟ سنأتي عليها في حينها.

ثانياً: الإيرادات التي يمكن الحصول عليها لمصلحة الفقراء ولسد النفقات العامة.

تحديد الملكية حتى لا يتخمر قوم ويهلك آخرون جوعًا وتوزيع هذه الأراضي على صغار الفلاحين. إصلاح الأراضي البور بواسطة الحكومة نفسها لا عن طريق إعطاء امتياز لشركات أجنبية وزراعة الأراضي الصحراوية وتوصيل مياه الري إليها فتزيد بذلك مساحة الأراضي وبالتالي يزيد الإنتاج. من القوانين التي تحرم على الأجنبي امتلاك عقارات فترجع بذلك ٢٥% الأراضي التي يمتلكها أجنب إلى أيدي الشعب.

فرض ضريبة الزكاة وهي ٢,٥% من رأس المال وتقدر حصيلتها بما يقرب من ٢٠ مليون من الجنيهات.

فرض ضريبة على أبلولة الشركات متصاعدة حتى تصل إلى ١٠٠% أي درجة المصادرة إن من سيرث مليون جنيه لو ورث نصفه فلن يضيره ذلك شيئاً.

فرض ضريبة تكميلية على الدخل الكلي متصاعدة أي شخصية.

زيادة نسبة الضرائب الأخرى مع تخفيف عبئها على الفقراء.

وفي ذلك قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣] .

ولكن قبل كل شيء يجب أن تطهر الأداة الحكومية الفاسدة حتى يمكنها أن تأتي بحصيلة هذه الضرائب كاملة فإن النقود التي للحكومة طرف الشركات والأفراد تقدر بستين مليوناً سقط حق الحكومة في بعضها بمضي المدة.

وعلى الحكومة أن تصفي شركات الامتياز والاحتكار وتستولي عليها هي حتى تنتفع هي بالأرباح وتخفف عبء تحكمها في أفراد الشعب وأن تقوم هي أيضاً ببعض المشروعات الاقتصادية التي تدر ربحاً وتكون للمصلحة العامة بها صلة وأن تسن التشريعات اللازمة لحماية الضعيف من القوى وتراقب تنفيذها تنفيذاً تاماً.

وأن هذه الأموال جميعاً لتربو على مائة وخمسون مليوناً لو أحسن استغلالها لقصت على أمراضنا الاجتماعية في بعض سنين.

أن يجعل نظام الزراعة تعاونياً. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

لأن الفلاح البسيط إذا امتلك شيئاً فهي مبعثرة هنا وهناك وإنه ليفقد جهداً كبيراً في زراعتها فلو أدخلت الآلات الزراعية على أن يكون لكل زمام آلة من كل نوع من عدة الآلات تروى الأرض كلها مرة واحدة ثم تزرع بهذه الآلات أيضاً ثم إذا جاء وقت الحصاد ذهب كل مالك إلى أرضه ليحصد زراعته فيستفيد الفلاح من وجهتين توفير المجهود الهائل الذي يبذله والوقت فيمكن بذلك أن يوجه المرء وجهة صالحة كالاتجاه لإنعاش الصناعات القروية.

ويجب أن يكون وجهة الإنفاق الأمور الآتية:

تحسين الحالة الاقتصادية ورفع مستوى معيشة الفلاح والعامل وعمل ملاجئ للعجزة واليتامى (الحكومة مسئولة عن كل شخص وفي ذلك قال عمر (لو عثرت بغلة بالعراق لسئلت عنها).

تحسين الحالة الصحية فالحالة سيئة كما كل شخص يعرفها وأني لأذكر أن إحدى الكاتبات الإنجليزيات خطبت في النادي الزائل فقالت "إنه يجب أن تظل نسبة الوفيات في مصر على ما هي عليه حتى لا تحدث مجاعة نتيجة لازدياد عدد السكان" ونسبة الوفيات كما أعلمها هي ٢٧,٥% وأني لأذكر عدد المرضى للتذكير فقط ١,٥٠٠,٠٠٠ مرضى بالعيون، ١٢,٠٠٠,٠٠٠ بالبلهارسيا و ٨,٠٠٠,٠٠٠ بالأنكلستوما و ١,٠٠٠,٠٠٠ أصيبوا بالمalaria و ٢,٠٠٠,٠٠٠ بأمراض عادية... إلخ.

رفع المستوى العلمي والعمل على تشجيع البحوث العلمية، فيجعل التعليم مجاناً للفقراء مجاناً في جميع مراحلها وإلزامياً في مراحلها الأولى كالتعليم الابتدائي مثلاً.

المادة السابعة: جميع أفراد الشعب لهم حق الملك التام ولا تنتزع الملكية إلا للمصلحة العامة وحالاتي المجاعات والحروب إذا استدعت الظروف ذلك على أن ترد إلى أصحابها عند زوال هذه الأسباب وأن المثل الذي يقول "إن سحر الملكية يحول التراب تبرا" لا يزال صحيحاً.

وإننا بإعطائنا الفرصة لجميع أفراد الشعب وجعلها متكافئة بينهم فإننا نزيد من كفايتهم وبالتالي سنصل بالإنتاج إلى الحد الأقصى مما سيزيد من رفاهية الشعب.

المادة الثامنة: جميع أفراد الشعب متساوون في الحقوق والواجبات.

أولاً: المساواة - ساوى الإسلام بين جميع أفراد الرعية والأمثلة على ذلك كثيرة فعند شكاية أحد التجار المأمون أجلس المدعى عليه على قدم المساواة، ساوى بين الخادم والسيد، وبين المرأة والرجل وفي ذلك يقول رسول الله "خدمكم خولكم" وإن المرأة المسلمة لها من الحقوق ما حرمت منه نساء كثيرات فبينما المرأة المسلمة لها حق الإتجار إذ تحرم منه المرأة الفرنسية إلا بإذن من زوجها وحتى في هذه الحالة تمنع من الصرف.

ثانياً: العدل - جعل الإسلام العدل بين الرعية وعدم التفرقة بينهم من أشد واجبات الحاكم قال رسول الله "لساعة من أمام عادل خير من الدنيا وما فيها" في رواية أخرى "لساعة من أمام عادل خير من عبادة ستين عاماً" وقوله: "إنما أهلك الذين من قبلكم أنه إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف حدوه أي أقاموا عليه الحد" وقوله: "شر الناس منكم الذين تكروهونهم ويكرهونكم وتلعنونهم ويعلنونكم" وخير الناس أمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم".

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

المادة التاسعة: ليس هناك رق ولا استعباد في الإسلام. ليس هناك رق في الإسلام كل ما هنالك أن دائماً يحصل أن يقع أسرى في أيدي المسلمين ويكون التصرف فيهم إما أن يستبدل بهم أسرى المسلمين أو أن يقدوا أنفسهم بأموال والباقي للقائد أن يطلق سراحهم منه أو توزع على جنود الجيش وكانت هذه لأسباب دينية أو اقتصادية أو سياسية.

الأسباب الدينية - أن هناك ما سموه الدروس العملية فإن الأسير عندما يرى أن سيده به رعوف رحيم ويرى من معاملته ومن دماثة خلقه سيدهش حفاً ويراه في عبادته وقنوته مما لاشك سيكون له أثر طيب في قلبه مما قد يكون سبباً في دخوله الإسلام.

الأسباب الاقتصادية - أن قيام الحروب يفقد الأمة جزءاً من بنيتها فوجود هؤلاء الأسرى مما يحرر الأيدي العاملة المفقودة وأن نداء روسيا الذي وجهته إلى جميع الأرمن في العالم لخير دليل.

أسباب سياسية - وهي أنها تمنع الثورات القوية التي قد تنشب في وجهها في يوم من الأيام إذ أن جزءاً كبيراً من المحاربين الأشداء سيكونون خارج الميدان فهو نوع من النفي. ولكن الإسلام لم يشأ أن يظل هؤلاء الأسرى مدى الحياة بل سرحهم تسريحاً بطيئاً بأن حُبب إلى من يملك هؤلاء الأسرى بإطلاق سراحهم وأوجب

ذلك عليهم في حالات كثيرة من ذلك عدم القدرة على صوم رمضان وفي القتل غير العمد وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فضائل الإسلام وأحكامه التشريعية:

حفظ للمرأة جسدها ولم يجعله سلعة تباع وتشتري وحفظ كيان الأسرة من التفكك فشرع الزواج وحرم الزنا ووضع له أشد العقوبات وهو الجلد مائة جلدة لغير المتزوج والقتل رجماً بالحجارة لغيره أي المتزوج يقولون إن في هذا وحشية لا توصف وهم الذين يقتلون مئات الألوف دفعة واحدة في حروب من أجل منافع شخصية. ولكن الإسلام قال يجب أن يكون هناك أربعة شهود ممن نعتد بقولهم حتى لا يساق الناس إلى الموت جزافاً وحتى يُحَدَّ من الزنا نفسه، فهو جاء للإرهاب أكثر من أي شيء آخر.

حرم الخمر حفظاً لصحة الأفراد وأموالهم فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

حرم السرقة لأن الإسلام أعطى للفقير حقه فإذا سرق بعد ذلك أي شخص فإنما يكون عبارة عن مجرم تعود الإجرام فسن لذلك قطع اليد ولكنه في نفس الوقت أعطاه الفرصة لكي يقلع عن إجرامه. بل قال "أدرئوا الحدود بالشبهات". انتهى المشروع.

ومن الواضح بالطبع أن المشروع لا تتوفر له "الحبكة" و"الدقة" اللازمة في مثله، فضلاً عن ركاكة أسلوبه وأنه فعلاً أقرب لأن يكون موضوع مسابقة تعلن عنها إحدى المجالات كما قال الدفاع.. ولكن يجب ألا ننسى أن كاتبه كان مدرساً في الرابعة والأربعين من العمر، ومن أفراد الجهاز الخاص، ومن أصدقاء الأستاذ فريد عبد الخالق عضو مكتب الإرشاد.

والصاق النيابة "تهمة" الاشتراكية لا أصل له، لأن كل ما جاء فيه عن حقوق المواطن الاجتماعية والاقتصادية هو ما قرره الإسلام بالفعل وما يقتضيه التكافل الاقتصادي والاجتماعي الذي يقوم عليه الإسلام ولها أسانيد من صريح الكتاب وصحيح السنة وقد يلحظ الإنسان تأثر الكاتب بكتاب سيد قطب عن العدالة الاجتماعية التي كانت قد نشرته جماعة الإخوان، وكان يمثل فكر سيد قطب قبل تحوله إلى الحاكمية.

إن النقطة التي نريد توجيه الالتفات إليها هي أن الفكر الإسلامي - وإلى حد ما الإخواني - تأثر تأثراً حاسماً نتيجة للصدام مع عبد الناصر وما قام به من تنكيل بالإخوان، وممارسة للتعذيب، ثم ما وقع فيه من أخطاء قاتلة نتيجة لديكتاتوريته انتهت بكارثة ١٩٦٧ المدوية... هذه الأحداث رسمت تحولاً كاملاً في الفكر الإسلامي بحيث أوجد الفئات التي أطلقنا عليها "الرافضة الجديدة" بكل أطرافها بدءاً من مجموعة شكري مصطفى وصالح سرية وعمر عبد الرحمن ومن جاء بعدهما، وهذه الفئات كلها تعارض الإخوان، وفكرهم، وكانت مناقشاتهم مع الإخوان في المعتقل سبباً في إصدار الإخوان لكتاب "دعاة لا قضاة"، وفي الوقت نفسه فقد تجمد الفكر الإخواني نتيجة للوضع القاسي الذي وجد الإخوان أنفسهم فيه، فهم منبوذون ومحاربون من الحكومة، وهم منبوذون ومحاربون من هذه

الفئات الإسلامية الجديدة... ونحن في غنى عن القول أن المجتمع "المدني" أو كما يقولون "العلماني" يضيق أيضًا بالإخوان.. وهكذا دفع الإخوان إلى الظل.. بينما احتل الساحة وسرق الأضواء المجموعات الشاردة الجديدة، وإن لم يمنع هذا أن الإخوان بفضل تراثها، وذكرى الإمام الشهيد، وتماسكها الإداري، لا تزال صاحبة الجمهور الأكبر، ولكنها لا تريد، وقد لا تستطيع، تحريك هذا الجمهور.

وصاحب الاختلاف في الفكر ما بين هذه الفئات الشاردة، وفكر الإخوان.. اختلاف في الزي و"النفسية".. فمن يقرأ كتاب محمود الصباغ (المتهم الثالث في قضية عربية الجيب) عن النظام الخاص والمطبوع به صور كل نجوم. وقيادات النظام، لا يرى فيهم ملتحمًا، أو معممًا، أو لابسًا طاقية، أو جلبابًا مما أصبح فيما بعد من علامات أعضاء الجماعات الإسلامية وإنما يرى مجموعة حليقة، مطربشة، كل واحد يرتدي "البذلة" كاملة ومعظمهم يضع المنديل الحريري في جيب سترته...

كما أن من يقرأ كتابات الإمام الشهيد عن النظام السياسي لا يجد تعبير "الحاكمية الإلهية" وإنما يلمس تقبل النظام الانتخابي القائم على أن الأمة مصدر السلطات مع تعديل نظمه مما يقضي على عيوبه، ولما كانت الأمة المصرية مسلمة، ومؤمنة بإسلامها فإن تحقيق النظام الإسلامي لا يعدو أن يكون تطبيقًا لإرادتها...

الإخوان المسلمون والعمل النقابي

تعود صلة الإخوان بالعمال إلى لحظة التكوين الأولى. عندما تأسست الخلية الأولى لها في الإسماعيلية من ستة من عمال شركة قناة السويس سنة ٢٨. على أن هذه الملابس كانت حكم الأمر الواقع أكثر مما كانت اختياراً خاصاً للعمال أو تفضيلاً لهم على غيرهم. ففي الإسماعيلية لم يكن هناك فلاحون. كان الشعب هم العمال الذين يعملون في خدمة القناة التي أنشأت مدينة الإسماعيلية كما أنشأت مدينة بورسعيد. ومن ثم كان من الطبيعي أن تقدم الدعوة إليهم وعندما امتدت الدعوة زحفت على الكثافة الريفية في محافظات الشرقية والمطرية دقهلية المصاغة وجعلت من الفلاحين جمهورها الذي تجاوب معها بحكم الحاسة الزراعية التي تجعل الفلاح مؤمناً. وفي المرحلة الأخيرة عندما تركزت في العواصم اجتذبت عناصر الطلبة والشباب.

وكان للهيئة بعض نشاط مع الحركة النقابية. ففي البحر الأحمر كانت الكتلة الثالثة من كتل العمال القوية التي ظهرت على الساحة في الأربعينات وهي كتلة عمال البترول (بالإضافة إلى كتلة عمال النسيج وكتلة عمال النقل) تخضع للإخوان تماماً وتولى الأخ محمد رمضان على رأسه النقابة ثم تركها للأخ أنور سلامة. وهما معاً من الإخوان المسلمين. وثمة وثيقة قديمة ذكر فيها الأستاذ البنا - رحمه الله - أسماء مائة شخص من خاصة الإخوان تعهد باستشارتهم قبل اتخاذ أي إجراء رئيسي وكان من هذه الأسماء طه سعد عثمان ومحمود العسكري وهما زعيما كتلة عمال النسيج في شبرا الخيمة. وظلت نقابة غزل ونسيج شبرا الخيمة مستترة وراء شعبة الإخوان بها حيناً من الدهر..

ولكن هذه الصلات كانت أقل فيما نرى مما كان يجب أن يكون بالنسبة للإخوان. وتكاد تمثل عزوفاً عن الحركة النقابية وهو يعود إلى أمرين الأول: غلبة بعض العناصر الحزبية والشيوعية على الحركة النقابية مما أوجد نوعاً من الوحشة بينها وبين الإخوان. وأعطى الإخوان انطباعاً سيئاً. والثاني: أن جمرة أعضاء الإخوان كانوا من الريفيين الذين لا يعلمون شيئاً عن الحركة النقابية ويجهلون تماماً، والإنسان عدو ما جهل. أما الذين يعيشون في المدن فقد كانوا من البرجوازية الصغيرة التي تحكمها التطلعات وتؤمن بأن الوسيلة "لتحسين الحال" هي الوسيلة الفردية. فكل واحد وحظه من الشطارة أو الذكاء أو اللباقة أو الظروف الخاصة. وهذه الوسيلة لتحسين الحال مما لا يوجد في العمال. الذين اكتشفوا الوسيلة "الجماعية" لتحسين الحال هي طريقة "الاتفاقات الجماعية" التي تبرمها النقابة مع الإدارة وتعد اتفاقية ملزمة للإدارة ويستفيد منها كل العمال حتى وإن لم يكن بعضهم في النقابة.

كانت هذه هي الأسباب التي جعلت نشاط الإخوان في النقابات العمالية محدوداً. كما كانت تعود إلى بعض الأخطاء التي اقترفتها "قسم العمال" الذي لم يتوفر له وعي عمالي، في توجيه العمال الإخوان وجهة

مخالفة لوجهة زملائهم مما أوجد انطباعاً سيئاً. وأدى فيما بعد إلى انشقاق طه سعد عثمان ومحمود العسكري وانضمامها إلى معسكرات يسارية كانت أكثر فهماً لهما واحتفاء بهما.

على أن الحركة النقابية في مصر لا تقتصر على النقابات العمالية. ولكنها تضم أيضاً نمطاً آخر من النقابات هي التي يطلق عليها النقابات المهنية التي تضم - عادة - خريجي الجامعات. وتوجد نقابات مماثلة للنقابات المهنية المصرية في بعض الدول الديمقراطية مثل بريطانيا والولايات المتحدة وتدعي "النقابات الحرفية" وقد يطلق عليها "النقابات الأرسنقراطية" لأنها لا تضم جمهور العمال ولكن الفئة الماهرة وحدها وهذا هو أبرز وجوه الاختلاف ما بينها وبين النقابات المهنية المصرية. ففي الخارج يتمثل عنصر الامتياز في "المهارة" ولكنه في مصر يتمثل في "الشهادة" ومن هنا جاء تكوين النقابات المهنية مقصوراً على حملة الشهادات وخريجي الجامعات باعتبار أن خريجها هم "أرسنقراطية" العمال كما يتضح من الفرق ما بين الميكانيكي والمهندس، الممرضة والطبيب إلخ... ومثل هذه الفروق لا قيمة لها في الخارج فالميكانيكي الماهر والممرضة الحاذقة ينالان من التكريم مالا يناله مهندس أو طبيب تقف مهارتهما عند حدود ثقافتهم الجامعية وهي - كائنة ما كانت - تختلف عن منطق وضرورات العمل الفعلي..

باستثناء هذا الفارق فإننا نجد أن خصائص النقابة الحرفية في الولايات المتحدة مثلاً هي خصائص النقابة المهنية في مصر وأبرزها الروح الفئوية والعناية بالمزايا والخدمات والبعد عن الاتجاهات الشعبية والنشاطات العامة وبالطبع أن يكون مناط العضوية هو الحرفة أو المهنة وليس الصناعة (كما هو الحال في النقابات العمالية التي تضم كل من يعمل داخل المصنع).

وخلال الأربعينات التي وصلت فيها الدعوة الإخوانية إلى الأوج لم تجد الهيئة حاجة - أو لم تفرغ - لدخول النقابات المهنية. إذ كان تركيزها على الطلبة من السنوات الأخيرة للدراسة الثانوية حتى المرحلة الجامعية والفلاحين وصغار الموظفين ومدرس الإلزامي في القرى. وكانت الهيئة تضم في العواصم والبنادر الكثيرين من "المهنيين" من محامين أو مهندسين أو أطباء (في يوم ما وجد ستة من الأطباء البارزين الإخوانيين يبدأ اسم كل منهم بـ "أنور") ولكن الهيئة لم تتجه إلى النقابات المهنية لأن تكتلها القائم كان يكفيها ولأن النقابات المهنية وقتئذ كانت مراكز للدعاية الحزبية...

ولكن الأحوال اختلفت في السنوات اللاحقة فبعد الحرب الشعواء التي شنها عبد الناصر على الإخوان وأراد بها تشريد رجال الإخوان وتعهير نساء الإخوان ومع نهاية ربيع التصالح الذي لم يكن صافياً أو خالصاً مع السادات... عاد الطوق الحكومي يضغط على التنظيم الإخواني... ووجد الإخوان المخلص في التحالف مع الأحزاب القائمة والعمل تحت مظلتها وبدأ هذا مع الوفد أولاً.. ثم مع حزب العمل ثانياً وبفضل هذا الحلف الأخير نجح الإخوان في اختراق الحظر المفروض عليهم وأن يكون لهم ثلاثون نائباً في انتخابات مجلس الشعب (إبريل ٨٧) فضلاً عن عدد يماثلهم لحزب العمل.

ومن يقرأ صحف هذه الفترة يلمس أن نوبة من الترقب والخوف تملكت دوائر الحزب الحاكم وظن بعضها أن هذا هو بداية الزحف الإسلامي على الحكم وانتظر البعض الآخر معارك حامية في المجلس... ولم يحدث شيء من هذا. أن الحكومة كانت قد تعلمت دروساً هامة خلال فترة الحكم المطلق الطويلة. بحيث لم تعد تخشى قوة المعارضة. وانتهى الوقت الذي حلت فيه المجلس تخلصاً من ثلاثة من المعارضين الأقوياء.. وقد عهدت الحكومة برئاسة المجلس إلى شخص يمثل الصلابة حيناً والصفافة حيناً آخر.. من الرعيل الذي عايش التنظيم الطبيعي الناصري. ثم هادن السادات وعمل تحت خدمته وحاول الإبقاء على "الاتحاد الاشتراكي" المنكود ولما لم يستطع قنع بأن يركز مواهبه وقواه لحماية النظام الحاكم حتى ولو قام على أنقاض الاتحاد الاشتراكي.

واستطاع هذا الرئيس أن يجعل من المجلس مدرسة يكون هو ناظرها. واستفاد من أحكام اللائحة وما فيها من ثغرات.. ولكن أهم من هذا أن كان وراءه أغلبية مطلقة بحيث لم يكن في حاجة لمجرد النظر قبل أن ينطق "موافقة.. موافقة". وتحت يده دائماً طلب من أكثر من عشرين عضواً بإغلاق باب المناقشة! يمكن أن يستخدمه عندما تتأزم الأمور...

تبين الإخوان أن مردود العمل السياسي الحزبي وثمره دخول مجلس الشعب لا يتوازي مع ما انفق عليه وبذل فيه. وأنه يمكن أن يكون نكسة لأنه ما لم يحقق نجاحاً فإنه يكون فشلاً.. وأعتقد أن هذا كان من أكبر أسباب التفاتهم نحو الحركة النقابية المهنية. كمجال جديد يمكنهم من مواصلة العمل.

ولعل لنا إسهاماً في هذا التوجه يعود إلى ما قبل ذلك فقد كونا "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل" في سنة ١٩٨١ وأخذنا على عاتقنا إيضاح أهمية العمل النقابي وتجاوبه مع الإسلام وفندنا بقوة تلك المقولة التي سادت حيناً بعض دوائر الإخوان "كنا ننظر إلى النقابات كما لو كانت رجساً من عمل الشيطان!!"

وأصدرنا في هذا الصدد كتاب "الإسلام والحركة النقابية" (ثلاث طبعات) فضلاً عن عدد كبير آخر من الكتب والرسائل. وفي كتابنا "الإسلام هو الحل" قلنا بعد أن قيمنا ما يأتي به العمل السياسي والترشيح لمجلس الشعب. والقيود والمثبطات التي تكتنف الأداء...

"لاشك في أن أسلوب العمل السياسي عن طريق مجلس الشعب - ضئيل الجدوى تافه الحصيلة وأن من الممكن أن يكون ستاراً لنوع من الديكتاتورية وأن من الضروري إما الانسحاب من المجلس والتركيز على العمل الشعبي.. أو اتخاذه أداة لتعزيز هذا العمل الشعبي وحمايته. وبدون ذلك يمكن أن تستمر الأغلبية في استخدام الأقلية لإعطاء حكمها طابعاً ديمقراطياً.. ولو أن هيئة مثل الإخوان المسلمين ركزت عملها في المجال النقابي لاستطاعت أن تزود الحركة النقابية بالأيديولوجية المطلوبة لإنقاذ الحركة النقابية من الخواء الروحي ولضمت جيشاً جراراً يستطيع وحده أن يجعل الحكومة تصغي وتتجاوب وتقابل الإخوان في منتصف الطريق".

وأخيراً فقد أصدرنا كتابنا "النقابات المهنية المصرية في معركة البقاء" الذي يعد "دستوراً" لحركة نقابية إسلامية ومعالم على طريق سيرها..

وقد نجح الإخوان المسلمون نجاحًا مؤزرًا في اختراق النقابات المهنية والسيطرة على معظم المراكز القيادية فيها. وكان انتصارهم في نقابة المحامين هو السبب المباشر الذي جعل الحكومة تصدر القانون ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ الذي حاولت أن تعرقل به المضي الديمقراطي للتقليدي للحركة النقابية بحجة "الأغلبية الصامتة" وأن القلة الإخوانية النشطة تحول دون ظهور هذه الأغلبية..

والادعاء متهافت. ففي كل النقابات تكون الأغلبية صامتة. وقد يكون صمتها تأييدًا وإقرارًا لقياداتها ومن الواضح أنه لا شيء يمكن أن يمنع أغلبية من أن تقرر ما تشاء ما دامت أغلبية ومادامت تريد..

ولم ينجح القانون فيما أراد وإن نجح في مضايقات القيادات النقابية وشغلها واستنزاف مواردها. فبعد إعلان إجراء الانتخابات طبقًا للقانون الذي سنته الحكومة نفسها وبعد أن تتخذ النقابة كافة الإجراءات من إعداد الأماكن وتجهيزها والإعلان في الصحف.. إلخ ترجع اللجنة المشرفة على الانتخابات عن قرارها ربما قبل تاريخ الانتخابات بيوم واحد. بحجة أنها تلقت شكوى من عدم تقييد بعض الأعضاء.. ومن الواضح بالطبع أننا لا نعدم في نقابة تضم مائة ألف آحادًا تكتب مثل هذا الاعتراض بحق أو بدون حق وإذا سلمت اللجنة المشرفة على الانتخابات لادعاءاتهم فمعنى هذا أنها لا تريد عقد انتخابات على الإطلاق! والحقيقة أنها حرب أعصاب واستنزاف للقيادة النقابية..

ولا نعرف ماذا في حقبة الحكومة بعد أن أفلس القانون ١٠٠ لسنة ٩٣ وبعد أن تذرعت القيادات النقابية بالصبر وضبط النفس إزاء تلاعب اللجان الانتخابية. ولكن يغلب أن لن تتجح الحكومة في استبعاد أو اقتلاع التيار الإسلامي القوي في النقابات المهنية إذ استطاعت هذه تكوين قواعد وكوادر ونظم في معظم النقابات كما أن جمهور الأعضاء قد لمس الفارق الكبير بين طهارة ذمة القيادات الإسلامية وبين الاستغلال الشنيع للموارد وصور الفساد والمحسوبية التي كانت فاشية في النقابات قبل أن يتقلد الإخوان زمامها. ناهيك بما تبذله معظمها من نشاط خدمي يتمثل في تسهيل بيع السلع المعمرة ورفع قيمة المعاشات وعقد المؤتمرات إلخ..

ومع هذا فيظل الوجود الإخواني في النقابات المهنية مهددًا ما لم تواصل القيادات الإسلامية للنقابات المهنية الجهود لترسيخ نفسها في النقابة بحيث يستعصي على الحكومة استبعادها. وقد ذكرنا في كتاب "النقابات المهنية المصرية في معركة البقاء" السياسات والإجراءات ووجوه العمل والنشاط التي يكون عليها أن تسلكها.

الحال في الحركة النقابية العمالية مختلف تمامًا. فحتى الآن لم يستطع الاتجاه الإسلامي أن يجد له موطئ قدم...

وهذا الوضع يعود إلى النقابات العمالية وإلى الإخوان المسلمين معًا..

إن أحدًا منهم ليس مستعدًا لتلقي الآخر أو الترحيب به...

النقابات العمالية تتحكم فيها عصابة من الرؤساء الذين أتقنوا اللعبة النقابية وتمرسوا بفنونها وهم يقودونها لأكثر من أربعين عاماً على أساس إدارة شللية تصطنع فيها قيادات النقابات العامة بعض رؤساء اللجان النقابية بحيث تتحقق الاستمرارية في القيادة النقابية ويدعمها في هذا أن القانون أعطى كل السلطات للنقابات العامة وجرّد اللجان النقابية وهي المنظمات القاعدية من الحقوق التي كانت منوطة بها من قبل.

وهذه القيادات المحتكرة العقيمة التبعية تجد مناصرة الحكومة التي لن تجد مثلهم في تبعيتهم الدليّة واستخذائهم الكامل واستعدادهم ليس فحسب لتطبيق سياستها بل وتقديم التصفيق والتهليل والتهتاف..

وبالطبع فإن السلطة التي لم تتجح في استبعاد الإخوان من اتحادات الطلبة ومجالس هيئات التدريس والنقابات المهنية. ليست مستعدة للسماح لهم بدخول مجال جديد وحساس كالحركة النقابية العمالية. ومن ثم فإنها تساند هذه القيادات التبعية في مقاومتها للتيار الإسلامي.

هذا بالنسبة للنقابات العمالية..

أما بالنسبة للإخوان. فيبدو أن من العسير أن يتخلوا عن طبيعتهم "البرجوازية" (26) التي يعسر عليها أن تسيع العمل النقابي العمالي أو تتكيف مع مقتضياته. مع أن طبيعة "الطبقة العاملة" وأسلوبها أقرب إلى الإسلام من طبيعة البرجوازية وأساليبها.

فالإسلام الذي لا يظبل للبرولتاريا ولا يستغل اسمها قد فضلها بالفعل على غيرها من فئات المجتمع عندما فضل الرسول من يعيش من عمل يده على غيره والنصوص في هذا صريحة وواضحة فضلاً عن نصوص القرآن في أنصاف المستضعفين في الأرض والضيق بالمترفين والحكام.

كما أن أسلوب "الاتفاقية الجماعية" أقرب إلى أسلوب الإسلام من العمل الفردي لأن الإسلام يفضل العمل الجماعي على الفردي. وقد فسرنا الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيراً "نقابياً" ليس فيه أي تعسف أو تطويع أو تكلف بحيث تكون الآية داعية للاتفاقيات الجماعية (27).

فضلاً عما في الاتفاقية الجماعية من اجتماعات ومناقشات ومساهمات وشورى سواء ما بين العمال بعضهم بعضاً أو مع العمال من ناحية والإدارة من ناحية أخرى. وهذه كلها إجراءات وأساليب يحث عليها الإسلام..

(26) قد يظن البعض أن وجود الروح البرجوازية لدى الإخوان يتعارض مع ما أشرنا إليه في مقال "أخواني الأخوان" في هذا الكتاب من قيامهم على أساس شعبي وأنهم يمثلون قاعدة وقيادة - جماهير الشعب من فلاحين، أو معلمي إلزامي أو صغار المهنيين إلخ.. وهذا اللبس يعود إلى أن الموعول هو "الوعي". فما لم يكن لدى المجموعات الشعبية "وعي طبقي" فإنها تتهاوى وتتعرض العناصر النابذة للاستقطاب البرجوازي. وهذا هو ما حدث للإخوان وقد أشرنا إلى عدم وعي الإخوان أنفسهم بطبيعتهم الشعبية والجماهيرية بتأثير بعض المفاهيم الإسلامية المغلوطة. فالمهم هو الوعي الطبقي. وهو ما ينقص الإخوان.

(27) انظر كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص ٧٨ إلى ٨٣ من الطبعة الثالثة.

فمن الناحية الإسلامية الخالصة كانت النقابات العمالية أولى بتجاوب الإخوان. علمًا بأن قانون النقابات يسمح لكل المهنيين بالانضمام إلى النقابات العامة وأن تكون ٢٠% من مجالس إدارات المنظمات العمالية من المهنيين أي أن الطريق أمام الإسلاميين لدخول انتخابات النقابات العمالية مكفول بالقانون انتخابًا وترشيحًا..

ولكن الأمر هو كما قلنا "أمر مذابح ونفسية" ومستوى طبقي يضع المهنيين فوق اليدويين وينأى بالأولين عن الآخرين.. وهو أمر يفترض ألا يكون في دعوة الإخوان التي تعلم جيدًا أن المؤمنين عدول يسعى بذمتهم أدناهم وتقوم العلاقات ما بين أعضائها على أساس "الحب في الله" وما أشرنا إليه آنفًا من تفضيل الرسول للعمل اليدوي.

وإذا كنت أدعو الإخوان لدخول الحركة النقابية العمالية. فإن هذا يعود إلى الحرص على مصلحة الحركة العمالية من ناحية ومصلحة الإخوان أنفسهم من ناحية أخرى.

لمصلحة الحركة النقابية العمالية. لأن الحركة النقابية لا بد لها من دعم نظري أو عقيدي. وقد وجدت الحركة النقابية الأوروبية هذا الدعم في الفكر الاشتراكي أو الماركسي. أما الحركة العمالية المصرية فليس لها أي غطاء أيديولوجي ليس لها أي نظرية تهديها وتوفر لها الإيمان وتحميها من الإغراء أو الانحراف وقد عالجت هذه النقطة في رسالتنا " لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية المصرية عقيدة".

بالإضافة إلى أن التنظيم النقابي القائم فاسد من الناحية التنظيمية لأن لا يحقق مشاركة القواعد مع القيادات وبذلك يحرم الحركة النقابية من قوتها الحقيقية ويحول دون تحقيق الحرية والديمقراطية فيها.

من هنا يكون دخول الإخوان المسلمين للحركة النقابية عامل تجديد وإنهاض واستكمال للجانب النظري/ العقيدي. فضلاً عن الإصلاح التنظيمي الذي يجب أن يتبناه الإخوان. وهذا وذاك في صميم مصلحة الحركة النقابية.

ومن ناحية الإخوان فلن يكون للإخوان قاعدة شعبية حقيقية ما لم يكن لهم وجود فعال في الحركة النقابية العمالية يحميها عندما يراد البطش بها.

وقد أظهر الصدام ما بين النقابات المهنية والحكومة حول القانون ١٠٠ لسنة ٩٣ أن النقابات المهنية رغم الحماسة المتقدة والإمكانات الوفيرة عجزت عن أن يكون قومتها أثر شعبي يمكن أن يضغط على الحكومة ويحملها على تعديل القانون - إن لم يكن سحبه - وباعت كلها بالفشل في النهاية. ولو رزقت تأييد الحركة النقابية العمالية لاختلف الموقف. من هنا لا يعد الوجود الإخواني في النقابات المهنية وحده حامياً كافياً...

القضية الحقيقية هي أن يؤمن الإخوان بجوهر النقابية العمالية وهي مشتقة من أصول الإسلام. وأن يتقوا أنفسهم ثقافة نقابية عمالية وأن يتخلصوا من النزعات الفردية والفئوية والبرجوازية التي تتحكم فيهم بدرجات متفاوتة وأن يتخلصوا من فهمهم الشعائري الطقوسي للإسلام. وأن يمنحوا الأولوية للعمل.

إننا لا نريد أن ننقذ الحركة النقابية العمالية من الوصوليين والانتهازيين الذين استغلوا لنحل محلهم الطقوسيين والشكليين الذين لا يعرفون شيئاً عن الحركة النقابية.

لابد للإخوان أن يفهموا أن زيادة الأجور وتقصير ساعات العمل وكفالة الكرامة للعامل هي من الأصول الكبرى للإسلام وأنها قربات إلى الله تعدل أو تفضل العبادات والصلوات... إلخ.

إذا كان لدى الإخوان مثل هذا الفهم. فإن دخولهم النقابات العمالية سيكون خيراً وبركة وسيحقق الإصلاح المنشود للحركة النقابية وللإخوان أنفسهم.. فإذا لم يكن لديهم فمن الخير لهم أن يظلوا في قوتهم دون القيام بتجارب فاشلة.

في معظم الحالات يغلب عليّ اليأس من أن يتمكن الإخوان من فهم هذا الكلام والقيام به ومع هذا فمن يراجع لائحة النظام الأساسي للإخوان سنة ٢٨ بلائحتها سنة ٤٨ يلمس الفرق الكبير بين جماعة صوفية تربوية وبين هيئة تجعل الإسلام منهجاً للحياة.. فليس هناك ما يمنع من أن يهديها الله لتقوم بهذا التجديد الذي سينهض بهم وبالحركة النقابية: عمالية ومهنية... ولن نتوقف عن الدعوة.. واستحثاث الهمم.

لقد قمنا بدورنا الميداني والتنظيمي في الخمسينات ولا يمكن - ولا يجوز - أن نقوم به الآن فهذا هو مجال جيل التسعينات وعليه أن يعمل ويكافح ويناور ويداور وينظم ويدبر.. وعلينا أن نزوده بالخبرات والتجارب والثقافات والمهارات التي تكفل له النجاح والتوفيق.

ومن الطبيعي أن توجد عناصر هذا الجيل في إطار الإخوان المسلمين إذا ألموا بما قدمناه.. فإذا لم يفعلوا فسوف «يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» [المائدة ٥٤].

بعض الخطوط التي تحكم ظاهرة "الصحة الإسلامية"

مضى قرابة قرن ونصف منذ أن بدأت اليقظة الإسلامية على صوت جمال الدين الأفغاني، الذي أسمع العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه بادئاً مرحلة الانتقال الفكري والمخاض، دون أن يظهر الوليد المنشود، فإن عوامل جديدة وقوى جديدة أخرجت الميلاد وأصبحت تهدد بإجهاضه، وهو ما يتطلب من المفكرين الإسلاميين مزيداً من العناية، فليس شرطاً أن تمر الأمور هوناً، أو أن يبلغ الأمل محله، وقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

وشواهد الحال تحذرنا، فالمعسكر الإسلامي رغم ظواهر "الصحة" لا يزال متخلفاً متقهقراً أمام عالم العصر الحديث، عاجزاً عن مجابهة تحدياته بحلول صريحة واضحة تقف على قدم المساواة أمام هذه التحديات بحيث تلزمها الحجة، إن لم تثبت أفضليتها، والدول الإسلامية على اختلاف مذهبياتها الإسلامية متقاطعة متخاصمة.. مزقتها تيارات السياسة ولم تجمعها وحدة الفكر، بينما تظهر قوى جديدة في العالم الأوروبي تجتاز مساحات واسعة من المعسكر الإسلامي، وتنتقص من أطرافها في أندونيسيا وبنجلاديش والقدس حتى أصبحت طرقات الأعداء يمكن أن تسمع على أبواب الديار المقدسة وصميم العالم الإسلامي.

في هذه الملاحظات سنتعرض لأبرز الخطوط التي تحكم ظاهرة "الصحة الإسلامية" إيجاباً وسلباً، فهناك عناصر قوة تدفعها وتدعمها كما توجد عناصر ضعف تعرقها وتؤخرها، ويقدر انتصار عناصر القوة على عناصر الضعف تكون قدرة الصحة الإسلامية على أن تتحول إلى نهضة. وإذا انتصرت عوامل الضعف فستتحول الصحة إلى نكسة وإغفاءة أخرى طويلة ويقدر ما نقول بالنسبة لهذا الاحتمال الأخير "لا قدر الله" بقدر ما يكون علينا أن نعمل لتجنبه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

وفيما يلي عرض موجز كما لو كان موازنة حسابية لعناصر القوة والضعف ومحاولة لاستقراء النتائج والاحتمالات.

أولاً: عناصر القوة:

أ- في الناحية الأيديولوجية:

في قضية كالصحة الإسلامية لا يجوز لنا أن نضائل من أهمية العوامل الأيديولوجية، بل إننا لا نبالغ إذا وضعناها في الصدارة، ومنحناها الأولوية، لأنها بلغة العصر تمثل "النظرية" التي لا يكون التطبيق بدونها إلا ارتجالياً وعشوائياً. إن النظرية تضع الطريق السوي الذي يجب أن تسلكه الصحة حتى لا تتخبط، وتذهب بهذا الأهواء والمطامع والاجتهادات والمؤامرات الوقتية.

وليس من اليسير أن نجد "نظرية" محكمة لأنها قمة الفكر ونهاية المطاف، أن الماركسية التي جذبت أركى العقول الأوروبية وكانت محوراً للدراسة لمدة مائة عام.. لم تثبت أمام التطبيق وكشفت سبعون عاماً فحسب عن المآخذ الجسيمة فيها..

ومن حسن حظ الصحوة الإسلامية أن عناصر قوتها تتجلى في هذه الناحية الأيديولوجية التي تمثل "الثوابت" وإن كانت عناصر الضعف - كما سنرى - أهدرت - ولو لحين هذه الأهمية:

وأهم عناصر القوة في الناحية الأيديولوجية هي:

أ- وجود القرآن الكريم:

إن القرآن هو أعظم دخر للصحوة الإسلامية لأنه العامل الوحيد الذي يجمع مزايا وخصائص لا يمكن أن توجد في غيره فهو حامي الوحدة اللغوية والفكرية.

وقد حفظ اللغة العربية القياسية من أن تنتاشها اللهجات الإقليمية وتمزقها. ثم هو الإطار الأعظم للعقيدة والشريعة التي تجمع عليها المسلمون قاطعية. وأخيراً فإنه بأسلوبه المعجز وإيقاعه المؤثر ومعانيه السامية وأحكامه المتلى لا يزال النبع الذي لا يغيض أو ينضب للإيمان الإسلامي. وهو يلهم الإيمان اليوم بالقوة نفسها التي كان يلهم بها الإيمان من أربعة عشر قرناً.. بل إن العصر الحديث يكشف كل يوم أدلة على إحكام القرآن وإعجازه تزيد الإيمان به..

ومن النادر أن نجد أمة فيها مثل هذا القرآن والمثال الوحيد - مع الفارق الجسيم - هو بني إسرائيل الذين أطلق عليهم القرآن "أهل الكتاب" والذين استطاعوا، بفضل هذا الكتاب ورغم كل ما لحقه من تحريف وتزييف - أن يتماسكوا وأن يصبح العامل الوحيد الذي يجمع.. وسط عشرات العوامل التي تفرق.

إن القرآن الكريم كان - وسيظل - أعظم رأس مال الدعوة الإسلامية وصحتها.

ب- شخصية الرسول (سيدنا محمد ﷺ).

إن هذه الشخصية الفريدة لا تزال منذ ظهورها حتى الآن وهي تبلور وتجسد الشخصية الإسلامية (كان خلقه القرآن) وأقل ما يقال عنها إنها بالنسبة للمسلمين جميعاً كالمك أو (الملكة) بالنسبة للكومنولث البريطاني، عنصر يربط كل شعوب الكومنولث برباط ولاء يعود إلى جذور تاريخية ودون أن يتضمن عنصراً من عناصر القسم والإلزام. وهو مجرد مثال تقريبي جانب واحد من جوانب شخصية محمد، ونحن نورده، كما أورد القرآن الكريم المثل لنور الله كمشكاة فيها مصباح.. أو لقدرته بذبابه وبعوضه.. لأن الولاء لمحمد لا مثيل له في التاريخ في ناحيتي العمق والمدى على سواء..

ولما كان الرسول يمثل القيادة - الإنسان - الذات... فإن هذا يكمل للإسلام شقيه وتنتضح الحكمة في ثنائية التشهد الإسلامي "أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً رسول الله".

وقد تزيد آثار شخصية محمد لأن الرسول قام بجزء كبير من التشريع لأن القرآن بطبيعته وصياغته ونظمه لم يشر إلا إلى الكليات وترك تحديد التفاصيل للرسول. ومن هنا أصبحت السنة مكملة للقرآن.

ويتفق هذان العنصران من عناصر القوة الأيديولوجية في أنهما محل التسليم من المسلمين كافة. فلا يمارى مسلم في قداسة القرآن، وإنه كلام الله وصل إلينا كاملاً غير منقوص أو محرف ولا يمارى مسلم في أن محمداً قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة وضرب المثل الأعلى للقائد والزعيم وأن شخصيته كرسول ومشروع وقائد ورجل دولة إلخ.. فاقت أي شخصية أخرى في العالم الأوروبي قد بدأ العالم الأوروبي يعترف بهذا مع انكشاف المؤامرة الصليبية على شخصية النبي. ولم يكن عبثاً أن يضعه كاتب أمريكي على رأس مائة شخص أثروا في تاريخ البشرية.

ج- التراث الحضاري:

إن الفترة التي تلت العهد النبوي مباشرة أي الخلافة الراشدة تمثل تراثاً حضارياً وتقدم حلاً إسلامياً للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي جابهت الإسلام عندما خرج من مجتمع المدينة المغلق والمحدود إلى آفاق الإمبراطورية المنفسحة والمفتوحة ويمكن أن تعد من باب "السوابق الدستورية" الملهمة للمجتمع الإسلامي.

فإذا كانت عبقرية الخلافة الراشدة قد وقفت في نهاية هذه الخلافة - بعد قرابة ثلاثين عاماً - فإن المجتمع الإسلامي - حتى في أظلم عهوده - لم يخل من الشخصيات المضيئة التي قامت بدورها وقدمت إضافتها الخاصة ليس فحسب في مجال الحكم والسياسة ولكن أيضاً في مجال العلوم والفنون.

وهذا هو ما نسميه "التراث الحضاري" وهو يمثل الامتداد التاريخي السليم ويمكن أن يلهم الصحة الإسلامية الشيء الكثير..

على أنه من المهم أن نميز بين شقين في هذا التراث:

الأول: يمثل الإبداع وهو ما نجده في تراث الخلافة الراشدة.. وعباقرة الفقهاء والعلماء المسلمين..

الثاني: وهو ما يمثل الإتياع والتقليد الذي بدأ مع إغلاق باب الاجتهاد والعكوف على الفروع والجزئيات وهذا الشق ليس له أهمية الشق الأول. وفي كثير من الحالات تنتفي منه كل آثار الإبداع أو الإضافة ويكون استلهامه مضللاً، لأنه يعني بالفروع والتفاصيل، وليس بالكليات والأصول، لأنه كتب بأقلام "مدرسين" في ظروف وملابسات ومناخ لم تكن هي المثلى دائماً.

من هذا العرض لعناصر القوة في الناحية الأيديولوجية نجد أن الصحوة الإسلامية تتوفر لها كل مقومات وأركان النهضة فلديها كتاب يرمز لوحدها ويضم نظريتها ودستورها وعقيدها وشريعتها ولديها الشخصية القيادية الملهمة "الأسوة" التي أدت دور القائد والزعيم أداء لم يسبق ووضعه ما ينبغي أن يكون عليه القائد إيجاباً وسلباً، أي ما يجب أن يقوم به وما يجب أن يتنزه عنه ثم لديها تراث حضاري أدبي وعلمي ويمكن أن يساهم في حل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ولا يخالجننا شك في أن الصحوة الإسلامية من هذه الناحية أفضل من أي "حركة" أخرى. ويمكن لها - من هذا المنطلق، ليس فحسب أن تتحول إلى نهضة ولكن أيضاً أن تقوم بدور في إنقاذ البشرية المعاصرة الضالة.

د- في الناحية المادية:

لا ريب في أهمية الناحية المادية، وقد يكون حقاً ما يقولونه عن أن المال (عصب الحياة) ولكننا مع هذا نريد أن نوجه الأنظار إلى عدد من الحقائق:-

أ- أن رأس المال ما هو إلا عمل مبلور والعمل بدوره ثمرة للفكر سواء كان عقيدة أم علم فاليابان مثلاً ليس لديها مواد أولية أو قوى محرّكة وهي تستوردها بأعلى الأثمان وقد خرجت من الحروب العالمية الثانية مدمرة ولكنها استطاعت أن تصبح بعد أربعين عاماً أقوى دولة صناعية لأن التراث الحضاري الياباني يقدر العلم والعمل وفي مقابل هذا نجد في السودان مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة والتي تروي بالأمطار ومع هذا لا يستطيع السودان أن يسد حاجات العدد المحدود من سكانه ويعمل باستيراد القمح وغيره من المنتجات الزراعية لأن السودان كبقية الدول العربية وكما سيأتي لم يفهم من الإسلام وهو تراثه الحضاري إلا جانبه العبادي⁽²⁸⁾.

ب- أن الثورات يمكن أن تكون أعظم (الصفقات الاقتصادية) ويمكن أن تدفع الاقتصاد دفعاً إلى الأمام وتستأصل كل المعوقات في طريقها.

ج- أن الثروة المادية الضخمة وأن كانت بلا شك تمثل قوة ضخمة إلا أنها عادة ما تصطبغ بسوء الاستخدام وسوء التوزيع بحيث قد تفضلها ثروة معقولة لا تصطبغ بسوء الاستخدام أو سفاهة التوزيع. وإذا كانت موارد الإسلام تعجز عن تحقيق الوفرة فإن العدالة الإسلامية يمكن أن تمحو الفاقة.

ومع هذا كله فقد أنعم الله تعالى على الدول الإسلامية وجعل في بلادها ثروات عديدة وفجر البترول خلالها تفجيراً بحيث أصبحت بعض دوله من أغنى دول العالم.

(28) كتب هذا البحث منذ قرابة عشر سنوات وقبل التطورات الأخيرة في السودان.

ثانياً: عناصر الضعف:

أ- الناحية الأيديولوجية:

١- القصور في فهم الإسلام

بعد عشرة قرون من التقليد تفوق الفكر الإسلامي في عدد محدود من المذاهب التي عُنت بفروع الفقه وشكلياته وابتعد عن النظر في القرآن مكتفياً بما قاله الشراح وغطت طبقات بعد طبقات أساسيات وجوهريات الإسلام وروحه ورسالته بحيث أصبح مدلول الإسلام هو التمدد بذهب معين وإتباع شكليات معينة كالصلاة والصوم والحج تبعاً لشراح المذهب.

ومن الواضح أن الإسلام لم يكتسح العالم القديم وينتصر على الفرس والروم لأنه يقرر شكلاً معيناً في الركوع والسجود أو الحج والطواف.. إلخ وأني انتصر لأنه كان قوة تغيير كبرى وثورة على المجتمع القديم الذي كان يقوم على شرعة التمييز والطبقية والاستغلال وعبادة الطاغوت. كان الإسلام يحمل رسالة العلم والعدل والمساواة والحرية (الكتاب والميزان) وكان يستأصل بالسيف كل من يرفض ذلك أو يتمسك بالأوضاع الاستغلالية والتحكيمية والطبقية.

ومعنى هذا أن حيوية الإسلام وانتصاره الأول إنما يعود إلى أنه دعوة لتحقيق الحياة الكريمة والمجتمع العادل وتحطيم الوثنيات وإحلال العلم والحرية والمساواة والعدالة محلها.

ولكن الفكر الإسلامي طوال القرون العشرة الأخيرة تجاهل هذا واقتصر فهمه للإسلام على أنه صورة معينة للعبادة.

صحيح إن العبادة مقوم هام من مقومات الإسلام. ولكن كل الأديان لها عبادات والجديد الذي جاء به الإسلام وميزه على الأديان الأخرى أنه لم يقتصر على العبادة ولكنه عالج بقوة ووضوح القضية الاجتماعية ووضع لها الحلول والخطوط الرئيسية فأوجب في السياسة مقاومة الاستبداد والطغيان وتأليه الحكام وجعل البيعة والشورى من أركان النظام السياسي للإسلام وفي الاقتصاد أوجب التكافل الاقتصادي وفرض الزكاة وجعل لها مصارفها باعتبارها حق معلوم وحرم الربا والاحتياز وكل صور الاستغلال. وفي النظام الاجتماعي حرر المرأة وأسقط كل صور التمييز الطبقي التي كانت تحكم العالم القديم من نسب أو لون أو جنس وحث على الثقافة والمعرفة والتفكير والتدبير وأوجب العمل وندد بالذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

والإسلام يضع هذا الجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في منزلة العبادة نفسها ولا يفرق بينهما. ومن هنا نفهم (ثنائيات القرآن) فهو لا يذكر الصلاة إلا ويقرنها بالزكاة ولا يشير إلى الذي آمنوا إلا ويقرّنهم وعملوا الصالحات. والربا ظلم عظيم والظلم شرك وعبادة الملوك والحكام وثنية.

هذا الجانب هو سر حيوية الإسلام لأن المجتمع لا ينهض إلا به وإذا أهمل فقد تؤدي كل صور العبادات من صلاة أو صوم أو حج ويسود مع هذا الظلم والجهل والفاقة في المجتمع الإسلامي. كما هو حادث فعلاً وقد تقبل الذين يقصرون الإسلام على العبادات هذا الوضع وهذه هي مأساة الفكر الإسلامي. وقد يصور هذا الفهم وتغلغله أنه عندما نادى الهيئات الإسلامية بأن يكون الإسلام ديناً وديناً مصحفاً وسيقاً.. إلخ فإن كثيراً من أتباع هذه الدعوة نفسها لم يفهموا من هذا إلا أن الدولة الإسلامية هي الدولة التي تفرض العبادات وتوجبها على الناس بردع السلطان وقانون العقوبات.

ولو ألقينا نظرة على الصحافة الإسلامية لوجدنا أنها في الوقت الذي يتحكم الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي وتنتشر الفاقة والحاجة وتتعدد المشكلات فإنها لا تشير إلى شيء من هذا كأنها في عالم آخر وتملاً كل صفحاتها بالأحاديث عن الوضوء والصلاة وأركان الحج.. الخ.

٢ - العجز عن التوصل إلى صياغة (للمبادئ الإسلامية)

تثبت وجودها أمام تحديات العصر، وهذا العجز مرتبط بالخطأ في فهم الإسلام، هذا الخطأ الذي حصر الإسلام في العبادة وأبعده عن الحياة والمجتمع والقضايا العامة والأخذ بأسلوب النقل والإتباع والتقليد وليس أعمال الفكر والتفكير والتمحيص. فلما جوبه الفكر الإسلامي بالعصر الحديث لم يستطع أن يتعامل معه لأنه يعيش في عالم يعود إلى عشرة قرون خلت. وما مثل علماء المسلمين اليوم إلا كآهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ثم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة، وورقهم لا يصلح للتعامل.

وهكذا ظلت مجالات عديدة شاغرة من الحل الإسلامي ولم يتقدم المفكرون الإسلاميون إلا بصور ساذجة من الحلول لا تتلاءم مع عمق وتعقيد المشاكل سواء كان ذلك في السياسة أو الاجتماع أو الفنون أو الآداب أو الاقتصاد أو العلاقات ما بين العمال وأصحاب الأعمال أو الصحافة أو المرأة.. إلخ.

في هذه المجالات كلها قد نجد الرفض وقد نجد التجاهل وقد نجد الحلول الساذجة أو الخاطئة نتيجة لاستلهاهم آراء وضعها الفقهاء منذ عدة قرون وفي ظروف وملابسات تختلف تماماً.

وليس هذا ذنب الإسلام.. فالقرآن الكريم قد أرسى الأسس والمبادئ التي يمكن أن تصلح أساساً لتأصيل الرأي من أعمال الفكر وابتغاء الحكمة أيًا كانت وعدم الاعتداد بما قرره بالآباء والأجداد. بل إن الاقتباس نفسه مبدأ إسلامي وإذا كان الشيء المقتبس حسناً فنحن أولى به وقد قال النبي ﷺ عن موسى (نحن أولى به منهم) فليس هناك حساسية يمكن أن يستشعرها الإسلام نحو الجديد مادام هذا الجديد يمكن أن يدخل في إطار الأصول الإسلامية العامة وفي سبيل تقبل الأفضل والأحسن أجاز الحديث لمن حلف على يمين فرأى خيراً منها أن يكفر عن يمينه وأن يأتي الذي هو خير (مسلم).

٣- ضعف الهيئات الإسلامية:

كان لابد أن تصاب الهيئات الإسلامية بالوهن نتيجة للعاملين السابقين وعندما رزقت الدعوة الإسلامية قادة أكفاء أو ظروفًا مواتية فإنها لم تترك إلا قليلاً وضربت عندما حانت الفرصة. وقد ضربت الدعوة الإسلامية في أندونيسيا ومصر ونيجيريا وغيرها كما قيدت أو استقطبت في دول أخرى. وكان من أبرز ما رزنت به الهيئات الإسلامية عدم وجود القادة الأكفاء بحيث أصبحت هذه الهيئات (جيوشاً بدون جنرالات) وظهرت صور من انفلات العيار وغلبه الجموح والتشدد على مجموعات عديدة من شباب الهيئات الإسلامية. ويجب ألا نخدع بما نسمع عن انتصارات للدعوة الإسلامية فإنها فلتات وأنها لا تعد شيئاً أمام التقدم المستمر والمنتظم للهيئات الأخرى مدنية أو تبشيرية.

٤- مقاومة النظم الحاكمة:

الحقيقة التي تفرض نفسها على كل مفكر أمين ولا مفر من الاعتراف بها هي أن المنطقة الإسلامية تحكم بنظم ليست هي أمثل النظم أو أقربها إلى الإسلام وإنها على اختلاف مواقعها وسواء كانت قبلية أو عسكرية فإنها أولاً وقبل كل شيء نظم حاكمة يهملها بالدرجة الأولى الحكم وما يتبعه من سلطات ولما كان الإسلام أقوى منها جميعها. فإن فكرة مقاومته أو التناكر له صراحة مستبعدة تماماً من كل هذه النظم ولكن هذا لا ينفي أن لكل منها وسائله الخاصة لكبت المد الإسلامي حتى لا يضر أوضاعها ومصالحها فبعض النظم تحاول احتواء هذه الدعوات واستقطابها والإبقاء عليها في حدود الأمان والبعض الآخر يكتف المعنى العبادي ويركز الاهتمام عليه يلفت الانتباه عن الجوانب الأخرى من حريات أو عدالة والبعض الثالث يمتص الوعي والحماسة بمختلف الوسائل أو الادعاءات.

وقد تكون الوعود والاستحسان وسيلة لامتناص الاهتمام كما هو حادث بالنسبة لتطبيق الشريعة الإسلامية⁽²⁹⁾ فإن المسؤولين يبدون اهتمامهم الكبير واستحسانهم المطلق ولكن دون أن يعملوا شيئاً أو لعلمهم يعملون في وضع المعوقات والأشواك في طريق التطبيق.

يعطيك من طرف اللسان حلاوة.. ويروغ منك كما يروغ الثعلب...

أما الوسائل البوليسية فإنها آخر المطاف ولكنها موجودة دائماً ويلاذ بها سرّاً أو جهراً. وقد أصبح الاعتقال والتعذيب أمراً مألوفاً ومقرراً لمدى معظم نظم الأمن الإسلامية والعربية.

٥- معارضة "المصالح المكتسبة":

على امتداد قرن تقريباً استطاع الاستعمار أن يخرس أصول الحياة الليبرالية الحديثة.. وقامت مؤسسات عديدة على أساسها، وأصبح لها مصلحة في حماية هذا الوضع.. فكل دور الملاهي والمراقص والحانات وكل

(29) كما كان الحال في مصر في الثمانينات.

مصانع الخمور ووسائل التجميل وحلبات الرقص وكل البنوك والمنشآت المالية التي تقوم على الفائدة وتمارس صوراً من الاستثمار والنشاط الاقتصادي المحرم ونقابات العمال المخدوعة والمضللة والصحافة التي تظن أن الفكر الإسلامي ضد حرية الرأي والأحزاب التي استمرت "قضية الحكم" وأجهزة الإعلام وهيئات الرياضة... إلخ كل هذه الهيئات والمؤسسات تعارض - بدرجات متفاوتة الفكر الإسلامي، بعضها لأن نشاطها بالفعل يخالف بعض الأصول الإسلامية ولكن الأكثرية لأنها مضللة أو لأن الذين يتحدثون باسم الفكر الإسلامي يقدمونه في صورة مشوهة.

احتكار المؤسسة الدينية:

يوجد في العالم الإسلامي مؤسسات دينية تعد كل واحدة نفسها المسؤولة عن الإسلام، ففي السعودية مثلاً نجد هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهيئة البحوث والدعوة والإرشاد والإفتاء. وجامعات عديدة تتفق عليها الدول وتدير شؤونها. وفي مصر الأزهر وكلياته ووزارة الأوقاف. وفي إيران نجد "الحوزات" العلمية والمراجع و"آيات الله"..

وفي كل حالة من هذه الحالات، فإن المؤسسة الدينية تظفر وحدها بمؤازرة الدولة، بينما تثبط وتحارب أي اتجاه آخر. ومن ناحيتها فإن المؤسسة الدينية ترى أن الدعوة هي وظيفتها وأن تفسير القرآن وتأويل الأحاديث ومعالجة القضية كلها يجب أن تكون حكرًا لها. ولا يجوز لآخر أن يتدخل فيها، وحجتها أنها الهيئة المسؤولة التي يتوفر لها ما لا يتوفر لغيرها من المعرفة الفنية والأحكام النظرية. وفي كثير من الحالات تنترس الدولة وراءها أو تتمحك فيها أو تزجي لها الثناء (كالحديث المعاد عن الأزهر). وقد تدفعها لمناصرة رأيها ومعارضة مخالفيها أو تغريبها بمصادرة كتاب إلخ.. وعادة ما تحاول المؤسسة الإسلامية أن تتأى بنفسها عن هذا ولكنها قد تعجز عن المقاومة وتجد نفسها منساقاة مع النظام الحاكم.

ظهور شرزم التطرف:

ظهرت الشرزم المتطرفة أول مرة في السجن الحربي بمدينة نصر في الحقبة الناصرية وكرد فعل لوحشية سجنائه وجلاديه وما اقترفوه من جرائم منكرة جعلت بعض الشباب يرون أن الذين يمارسون هذه الممارسات ليسوا من الإسلام في شيء، وإنهم إلى الكفر أقرب. وكانت أولها هي جماعة شكري مصطفى التي أطلق عليها "التكفير والهجرة".

وقد حاول الإخوان أن يقنعوا هذه الشرزم بخطأ تكييفها أو أسلوبها. ولكنهم عجزوا.. وفشلوا أمام إجماع النظام..

وهذا هو التصوير الحقيقي والواقعي لظهور تلك الشرزم الشاردة، العنيفة، التي لجأت إلى الإرهاب، أما العودة بها إلى ما قبل ذلك فإنه تعسف للحقيقة..

وقد ظهر ونفشى أخيراً الفساد، بينما ظلت قوى الضغط على الشعب وحكمه حكماً بوليسياً وبأغلبية مزيفة.. تزود هذه المجموعات بدافع جديد، إذ لم يعد أمامها قناة لإعلان رأيها أو الإصلاح بطرق مشروعة.

والتطرف والشطط ظاهرة معروفة في مثل هذه الملابس وقد حدثت في معظم الدول بصور متفاوتة وحتى الآن فإن سجل "النهليست" في روسيا القيصرية يعد أضخم سجل للتطرف السياسي شهده العالم واستهدف تحطيم الحكم القيصري وراح ضحيته مئات من الشبان والشابات.. فهو فكر لا يعد أصيلاً إلا لدى القلة التي هي مهينة بحكم طبيعتها له.. ولكنه "كظاهرة اجتماعية" يعود إلى ظروف استثنائية ويرتبط علاجه أو الحكم عليه.. بهذه الظروف نفسها - لأنه حتى عندما يشط أو يخطأ أو يجاوز الحدود فإنه يعتمد على مبدأ الاستثناء والضرورة التي تبيح المحظورات ولو لم توجد الضرورة لما أبيضحت المحظورات.

ولا علاج لظاهرة التطرف والإرهاب ما ظل الفساد فاشياً، والحكم بوليسياً والحريات مكبلة بالأغلال.

إن الحل الوحيد هو الحرية.. وما ظلت النظم الحاكمة تأبأها على شعوبها، فعليها أن تدفع الثمن..

خاتمة

مع أن هذا العرض لعناصر القوة والضعف في الصحة الإسلامية قد يعلي عناصر الضعف ومقاومة الصحة على عناصر القوة فيها، فتظل الحقيقة الأساسية أن عناصر القوة هي في الثوابت: الله والرسول الذي يمثل النظرية والتطبيق مما يفسح المجال لإمكان انتصار الصحة إذا استطاعت توظيف رأسمالها توظيفاً حسناً، يجعلها تنتصر على عناصر المقاومة التي هي كلها "عارضة".

والأرض لله يورثها عباده "الصالحين".

رأي الإخوان المسلمين في الوحدة العربية

في ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ أرسل مكتب المرشد العام مذكرة هامة إلى "رئيس وأعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية" تضمنت رأي الإخوان المسلمين في قضية الوحدة العربية. ولمناسبة مرور خمسين عاماً على تاريخ هذه المذكرة. وللأهمية الكبرى لموضوعها رأينا أن نثبتها هنا، ونجعلها خاتمة مباحث هذا الكتاب.

وكما سيرى القارئ بأن هذه المذكرة الهامة - والتي تكاد تكون مجهولة - تثبت أن الإخوان المسلمين يناصرون بقوة وحدة الأمة العربية ويؤدون بشدة كل بعناية الاستقلال الفتى كانت لا تزال غير محققة - (قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وقبل قيام جامعة الدولة العربية) - وهي تقضي قضاء مبرماً على فكرة التعارض ما بين الوحدة العربية والدعوة الإسلامية. فالوحدة العربية هي القلب من وحدة أكبر منها هي الوحدة الإسلامية، التي بدورها يمكن أن تدخل في دائرة أكبر هي العالمية..

ونقطع بأن هذه الوثيقة هي من قلم الإمام الشهيد حسن البنا يوحى بذلك الأسلوب السهل السائغ. والمعاني المؤثرة، والنظرة المتحررة من الرواسب والأفق الواسع وتقادي الموضوعات الشائكة التي تثير الخلاف وقد صدرت الوثيقة بعد من "مكتب المرشد العام".

ولم ترد الإشارة إلى هذه الوثيقة فيما بين يدينا من كتابات عن الإخوان، ولم يرد لها ذكر في كتاب الأستاذ محمد عبد الحليم وهو أشمل ما كتب عن الإخوان، رغم أنه تحدث طويلاً عن ملابسات تكوين الجامعة العربية..

وفيما يلي نص هذه الوثيقة.

حضرات السادة الفضلاء رئيس وأعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد.

ففي هذه الساعات التاريخية الفاصلة في مستقبل الأمم والشعوب عامة والأمة العربية خاصة، قدر لكم أن تعقدوا اجتماعكم هذا وأن تضطلعوا بأجل مهمة في تاريخ أقصى المغرب ومن ورائهم ثلاثمائة مليون مسلم "والإسلام عروبة بعد العروبة" والجميع يراقبون بلهفة وشوق وأمل عظيم ما تقررون وينتظرون منكم، وضوح المؤمنين، وعزائم المجاهدين، وصلابة الذين لا يخافون في الحق لومة لائم، ويسعدهم أن يفتدوا حقوقهم بأنفسهم وأولادهم ودمائهم وأموالهم. فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، والله معكم ولن يتركم.

وأني باسم الإخوان المسلمين في أنحاء المملكة المصرية، وفي بلدان العالم العربي والإسلامي المختلفة، أرفع إليكم أطيب التهنئات وأجمل التحيات سائلاً الله تبارك وتعالى أن يبارك عملكم وأن يرفع العقبات من طريقكم، وأن يهيئكم لخير أمتكم وبلادكم أنه نعم المولى ونعم النصير.

أيها السادة الفضلاء:

أنكم لتدافعون عن عدل وأنجح وأوضح قصة في التاريخ. فمن البديهيات التي لا تقبل الجدل (أن العرب أمة واحدة) وأن هذا التعبير لا يساوي في أحقيته ووضوحه واستقراره في النفوس والأذهان قول القائلين "السماء فوقنا والأرض تحتنا" فقد اصطلحت على تكوين هذه الوحدة العربية وتدعيمها كل العوامل الروحية واللغوية والجغرافية والتاريخية وأن العرب من خليج فارس إلى المحيط الأطلسي ليتحدون بوحدتهم أية أمة متحدة في القديم والحديث وليست تعوز هذه القضية الأدلة والبراهين. ولكنها يعوزها ثبات المؤمنين وعدالة المنصفين. فإذا حققتم في أنفسكم الأولى، وهو العهد بكم وحقق حلفائكم الثانية وهو الظن بهم فقد عاد الحق إلى أهله ووضعت الأمور في نصابها، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

أيها السادة الفضلاء:

إن بين يدي مؤتمركم ولجنتكم أموراً كثيرة أنتم مطالبون بدراستها وتمحيصها، وأهدافاً كثيرة أنتم مطالبون كذلك بتحقيقها والوصول إليها وأن من الخير للقضية العام أن تصارحوا الشعوب والهيئات بما بين أيديكم، لتكون لكم مدداً وعوناً، وأن تصارحكم الشعوب والهيئات بما ترى، ليكون ذلك مكاشفةً ونصحاء، ولهذا أتقدم إليكم باسم الإخوان المسلمين بهذه الخواطر، راجياً أن نكون بذلك قد أدينا بعض الواجب، وساهمنا في هذا الجهاد المبرور.

ومن تلك الأهداف:

أ- تحقيق مظاهر الوحدة العامة.

فهناك خطوات أولية تعتبر وسائل عملية للوحدة المنشودة وهي في الوقت نفسه من حق الحكومات العربية الخالص التي لا ينازعها فيه منازع ومن تلك الخطوات:

١- رفع الحواجز الجمركية.

إلغاء جوازات السفر ومنح حرية المرور والتنقل في أي قطر من الأقطار العربية لكل عربي بعد التأكد من شخصيته وإباحة الهجرة والاستيطان على نظام واسع ميسر.

التوسع في التعاون الاقتصادي وتأليف الشركات العربية الواسعة النطاق من سكان البلاد العربية جميعاً في أي قطر من هذه الأقطار ودراسة المشروعات العربية العامة دراسة مشتركة وإحياء ما تعطل منها كمشروع سكة الحديد الحجازية التي أنشئت بأموال العرب والمسلمين جميعاً وأوقافهم.

تنمية التعاون الثقافي والتشريعي والعسكري بتوحيد برامج التعليم ومناهجه وتوحيد منابع التشريع وقواعده، وتوحيد نظم التدريب العسكري وأساليبه، ومؤتمر الوحدة العربية مطالب من العرب جميعاً بأن يعمل على تقرير هذه الخطوات ورسم الخطط الموصلة إلى تحقيقها وجميع الحكومات والشعوب العربية عليها.

تحقيق الأمان القومي ومساعدة الأمم الناشئة على نيل استقلالها واستكمال نهوضها.

وتأتي بعد الخطوة السابقة خطوة ثانية، فإن للبلاد العربية مطالب قومية وحقوقاً سياسية لم تتلها بعد. ولا فائدة من ذكر العوامل التاريخية والحوادث التي أدت إلى انتقاص هذه الحقوق واغتصابها ولكن الذي يفيد ويجدي الآن أن نواجه الأمر الواقع والوضع القائم ونجاهد في سبيل تحقيق هذه المطالب وتخليص تلك الحقوق، وعلى مؤتمر الوحدة العربية ولجنته التحضيرية أن يرسم للشعوب والحكومات طرائق هذا الجهاد المشترك وأن يقرر تكاتف الجميع في سبيل كسب هذه القضايا التي منها:

العمل على استكمال استقلال مصر والمحافظة على وحدة وادي النيل، فكل محاولة يراد بها انتقاص استقلال مصر أو تقييد هذا الاستقلال أو تمزيق وحدة وادي النيل عمل ظالم، يؤثر في كيان الأمة العربية العامة، وعلى كل شعب عربي وحكومة عربية أن يشد أزر مصر وحكومتها وشعبها في سبيل هذه القضية حتى تفوز فيها. ويجب أن يكون مفهوماً للرأي العام العربي العالمي كله أن مصر حين تتمسك بوحدة وادي النيل لا تعتدي بذلك على شعب من الشعوب ولا تستعبد أمة من الأمم ولا تطمع في توسعة حدودها، أو زيادة مساحة أرضها أو تنمية ثروتها على حساب غيرها، فكل هذه المزاعم باطلة لا وجود لها، ولكن مصر حين تتمسك بالنيل الأعلى تحقق بذلك وحدة شعبها. فمصر والسودان أمة واحدة. وتحافظ على صميم كيانها وتضحي بكثير من مواردها وثروتها وجهودها. وأن حاجة هذا الجزء من الأرض إلى مصر لأعظم بكثير من حاجتها هي إليه.

العمل على استكمال استقلال البلاد الشامية على اختلاف أقسامها. وإذا أصرت لبنان ومثيلاتها على المحافظة على استقلالها فليكن ذلك لها حتى يقنعها الزمن وتثبت لها الحوادث أن من خيرها بل من ألزم اللوازم لها أن تعود إلى أحضان أمها "سورية الكبرى" وأن ذلك لقريب فنحن في عصر الوحدات القوية والكتل الشعبية الجامعة - ومادامت سنتفق مع غيرها من الشعوب العربية على كل مقومات الوحدة العملية فحسبنا ذلك منها الآن ولعل من الخير للمؤتمر وللبلاد الشامية خاصة والعربية عامة ألا تجعل من هذه القضية عقبة تصطدم بها في فورة الشعور وثورة الحماسة حتى يفصل فيها الزمن والزمن جزء من العلاج.

العمل على حل قضية فلسطين حلاً يتفق مع وجهة النظر العربية ويؤدي إلى سلامة هذا الجزء من الوطن العربي - وهو منه بمثابة القلب من الجسد - وإلى المحافظة كل المحافظة على أن يظل عربياً خالصاً وإلى دفع العدوان اليهودي وذبذبة السياسة الدولية عنه بكل الوسائل، فإن العرب جميعاً وفي مقدمتهم أعضاء اللجنة يدركون مدى الأخطار العربية التي تهدد كيان الأمة العربية وتحطم آمالها إذا استقرت قدم اليهود في فلسطين. والشعوب العربية كلها قد وطدت العزم على أن تستنقذ فلسطين مهما كلفها ذلك من الجهود والتضحيات.

وإننا لنعطف على اليهود في محنتهم ولكن ليس معنى هذا العطف أن يكون إنصافهم بظلم غيرهم وإيواؤهم بإخراج سواهم من ديارهم أو مضايقتهم في أوطانهم. وفي ممتلكات الدول الحليفة وأراضيها ما يتسع لإضعافهم وما هو في حاجة ماسة إلى كفايتهم ونشاطهم.

مساعدة بقية أقطار الجزيرة العربية "العراق وملحقاتها" - والمملكة العربية السعودية وملحقاتها - واليمن وملحقاتها على استكمال استقلالها ونهضتها ودفع الدسائس السياسية المختلفة عنها وبخاصة وهي الآن في مهب عاصفة قوية من التنافس الدولي الشديد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً هي أمامها أحوج ما تكون إلى من يشد أزرها ويبصرها بمواقع الخير والنشر لحاضرها ومستقبلها وليست هناك فرصة للنظر والاختيار أبدع ولا أوسع من هذه الفرصة التي إن أفلتت اليوم فلن تعود إلا بعد حين.

العناية بتحرير الأقطار العربية في شمال أفريقية وإدخالها في دائرة الوحدة. فلوبيا بقسميها "برقة وطرابلس" يجب أن تعود إليها حريتها واستقلالها وأن تظل قطراً واحداً تحت لواء حكومة من أهلها بعد أن زال عنها سلطان الغاصب المعتدي وأن شأنها في ذلك شأن الحبشة سواء بسواء فإذا كان البريطانيون قد حاربوا وحدهم الطليان حتى أجلوهم عن الحبشة ثم سلموها موحدة مستقلة لإمبراطورها السابق فإن من واجبهم وقد طردوا هذا العدو البغيض عن لوبيا بمساعدة أهلها ومساعدة الشعوب العربية لهم في ذلك أن يعيدوها لأهلها موحدة مستقلة كذلك وليس هناك ما يدعو على تمزيق وحدتها وتقسيم أرضها ومعاملتها بغير الأسلوب الذي عوملت به سابقتها.

وتونس والجزائر ومراكش بلاد عربية وقعت تحت الاستعمار الفرنسي باسم الحماية تارة والاستعمار تارة أخرى وقد جاهدت في سبيل حريتها واستقلالها جهاد الأبطال ولم تعترف بهذه الأوضاع التي رسمتها لها السياسة الاستعمارية في يوم من الأيام. ثم ساهمت أخيراً في المجهود الحربي للحلفاء مساهمة عظيمة أطلقت السن زعماء الأمم المتحدة بالثناء عليها وسجلها المستر تشرشل في خطبه بالإعجاب والإكبار، وما كان جيش فرنسا الحرة الذي حارب في صفوف الحلفاء في شمال أفريقية وفي إيطاليا وفرنسا إلا هؤلاء الجنود البواسل من أبناء هذه الديار العربية الصميمة ومن واجب المؤتمر العربي أن يطالب بحقوق هذه البلاد كاملة وأن ينقذ من برائث الظلم والعدوان عشرين مليوناً من العرب لا زالوا متمسكين بعروبيتهم مطالبين بحرية بلادهم مهما أراد المستعمرون أن يظهروهم بغير هذا اللون - لقد حاول هؤلاء الغاصبون خلال هذه السنوات الطوال أن ينالوا من وطنية هؤلاء العرب المجاهدين بالتجنيس وبالإرهاب والضغط الشديد، وأن

ينالوا من عروبتهم بالثقافة الأجنبية ومحاربة اللغة العربية والغزو الاجتماعي، وأن ينالوا من دينهم بالتبشير ومقاومة الأوضاع الإسلامية بمثل الظهير البربري فلم يُجِدْهم كل ذلك نفعاً وما زال شمال أفريقيا وسيظل عربياً مسلماً.

ونرى أن من واجب اللجنة أن تدعو إلى المؤتمر ممثلين من أبناء هذه البلاد ومن أبناء فلسطين لبيسطوا أمامه قضاياهم ومطالبهم.

ونحن حين نرى أن يطالب مؤتمر الوحدة بهذه الحقوق للبلاد العربية ويلح في المطالبة بها والثبات عليها وأن يحتفظ لنفسه وللشعوب العربية والحكومات العربية بحق التمثيل في مؤتمر الصلح القادم. لا نعتمد في ذلك على قوة السلاح وكثرة الجيوش والأساطيل فحسب العالم ما قاسى من الاعتماد على القوة ونبذ القانون والعدالة. ولكننا نعتمد:

وعلى أن ميثاق الأطلنطي الذي قيد به الحلفاء أنفسهم وأيدوه بكثير من التصريحات قد ضمن هذا الحق لكل الشعوب.

وعلى أن الشعوب العربية قد ساهمت في المجهود الحربي مع الحلفاء مساهمة جليلة لاشك أنها كانت من عوامل النصر والظفر لهم. وقد اعترفت بذلك حكوماتهم وشعوبهم وصحافتهم.

ونعتمد أخيراً على هذا التطور في التفكير العالمي وهذه اليقظة في الضمير الإنساني، ويا ويح الدنيا إذا كانت ستسودها وتصرفها من جديد الأفكار الرجعية وتتحكم فيها المطامع الاستعمارية.

وإننا لنعلم حق العلم أن الطبيعة البشرية في كثير من الأحيان تتسى أنصافها الذي أعلنته ساعة الشدة لتعود إلى ظلمها الذي ألفتة حين الرخاء ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الروم: ٣٣] ولكننا نعلم كذلك أن الدرس الحاضر كان من القسوة والفضاعة وعمق الأثر في النفوس والأرواح والشعوب والحكومات بحيث لا يعرض لهم نسيانه بمثل هذه السهولة.

ولاشك أن من الخير كل الخير للأمم المتحدة أن تقوم في الشرق أمة عربية قوية لها من خلقها ومجدها وجلال تقاليدها في ماضيها وحاضرها ما يجعلها أقوى دعائم السلام في آسيا وأفريقية خاصة وفي مستقبل البشرية عامة.

ج- الكيان السياسي العام للأمم العربية المتحدة:

وتأتي بعد الخطوة السابقة خطوة ثالثة يكمل بها بناء الوحدة العربية تلك هي لون الكيان السياسي العام لهذه الحكومات العربية المتحدة - ولا نظن أن الوقت قد حان أو أن الظروف قد تهيأت لمثل هذا البحث كما لا نظن أن من مهمة المؤتمر أن يختار شكل الحكومات فإن ذلك متروك للشعوب نفسها يتخير كل شعب منها نفسه النوع الذي يريد ولكن الذي يجب أن يعمل له المؤتمر بهذا الخصوص ويقرره من الآن:

أن يحتفظ بالحكومات العربية المستقرة بحق التمثيل فيما إذا أجرى استفتاء للشعوب العربية المحررة أو التي لم تستقر حكوماتها الوطنية بعد.

وإن يقرر من الآن لوناً من ألوان الارتباط السياسي بين الحكومات العربية كمجلس استشاري أعلى تستطيع بواسطته أن يتصل بعضها ببعض بطريقة دائمة منظمة ويكون أساساً لوحدة أتم وأكمل في المستقبل إن شاء الله.

د- تحديد الصلة بين البلاد العربية وجاراتها من الممالك الإسلامية غير العربية:

وهناك شعوب إسلامية وأقليات وجاليات عربية في كثير من البلاد والأقطار بلاد الحلفاء وبلاد الأعداء كالشعب الأندونوسي والتركتستاني والمسلمين في الهند والمسلمين في الصين والفيليبين والمسلمين في روسيا وفي البلقان وكل هؤلاء يضرب عليهم الاستعباد باسم الاستعمار وتهضم حقوقهم ويحال بينهم وبين الرقي والنهوض فإذا كان هذا الوقت هو الذي يترقبه المظلومون لينالوا حقوقهم وليصلوا إلى حريتهم فإن أولى من ينطق بلسان هؤلاء ويطالب بحقوقهم هو المؤتمر العربي بحكم الروابط الكثيرة بين العرب وبين هذه الجماعات فعلى المؤتمر أن يطالب باسم الإنسانية وباسم التطور الجديد في نظام العالم لتحرير الشعوب المستعبدة من هؤلاء.. وإنصاف المظلومين من هذه الأقليات ودراسة القضايا المعقدة التي طال عليها الأمد ولم تمتد إليها يد العدالة والإنصاف.

و- لون الحضارة التي يجب أن تصطبغ بها الأمة العربية:

ولعل من أهم واجبات المؤتمر أن يعني بدراسة هذه الناحية دراسة دقيقة وأن يكون لنفسه رأياً يوجه إليه الأمم والحكومات العربية فذلك أجدى عليها من هذه الذبذبة في التفكير والتنفيذ معاً. ولعل هذه الناحية الاجتماعية لا تقل أهمية عن الناحية السياسية إن لم تزد عنها.

والرأي العام العربي يذهب في هذه الناحية مذهبين مختلفين فمن الناس من يدعو إلى الحضارة الغربية ويحض على الانغماس فيها وتقليد أساليبها (خيرها وشرها، وحلوها ومرها ونفعها وضارها ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب) ويرى أنه لا سبيل للنهوض والرقي إلا بهذا (ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع).

ومن الناس من ينفر من هذه الحضارة أشد التنفير ويدعو إلى مقاومتها أشد المقاومة ويحملها تبعة هذا الضعف والفساد الذي استشرى في الأخلاق والنفوس، ولاشك أن كلا الفريقين قد تطرف وأن الأمر في حاجة إلى دراسة أعمق وأدق وإلى حكم أعدل وأقرب إلى الإنصاف والصواب.

لقد وصلت الشعوب الغربية من حيث العلم والمعرفة واستخدام قوى الطبيعة والرقي بالعقل الإنساني إلى درجة سامية عالية، يجب أن تؤخذ عنها وأن يقتدي بها فيها وهي إلى جانب ذلك قد عنيت بالتنظيم والترتيب وتنسيق شؤون الحياة العامة تنسيقاً بديعاً يجب أن يؤخذ عنها كذلك، وهذه الحقائق لا يكابر فيها إلا جاهل أو معاند.

ولكن هذه الحياة الغربية والحضارة الغربية التي قامت على العلم والنظام فأوصلها إلى المصنع والآلة وجبى إليها الأموال والثمرات وملكها نواصي الأمم الغافلة التي لم تأخذ في ذلك أخذها ولم تصنع صنيعها - هذه الحياة المادية الميكانيكية البحتة مع ما صاحبها من خصومة حادة بين علماء الدنيا وحراس الدين - قد أغفلت هذه الأمم عن أخص خصائص الإنسانية في الإنسان - عن الغرائز ومستلزماتها وللمشاعر ومطالبها والنفس وعالمها وطرائق تنظيم ذلك كله وضبطه ضبطاً يضمن خيره ويجنبهم شره.

ودفعت بها دفعاً عنيفاً إلى التبرم بالعقائد والأديان والخروج عليها خروجاً قاسياً شديداً وإقصائها إقصاء تاماً عن كل نواحي الحياة الاجتماعية العملية.

فأسقطت الحياة الغربية من حسابها جلال الربانية، والتسامي بالنفس الإنسانية، والاعتقاد بالجزاء الأخروي. واضطربت بذلك بين يديها المقاييس الخلقية وانطلقت غرائز الشر من عقالها تحت ستار الحرية الشخصية أو الاجتماعية، ونجم عن ذلك أن تحطمت الفضائل في نفوس الأفراد وتهدمت الروابط بين الأسر وفسدت الصلات بين الأمم وصارت القوة لا العدالة شريعة الحياة واندلعت نيران هذه الحرب فذاق حرها المحاربون والأمنون على السواء.

وقد أدرك هذه الحقيقة أخيراً ساسة الأمم الغربية أنفسهم فهبوا ينادون بوجود العناية بالشئون الروحية ويتغنون بالمثل الخلقية العليا ويهيئون بالحكومات أن تصبغ المدارس ومناهج التعليم والتربية بعد الحرب بهذه الصبغة وأن تعود بالشعوب إلى الأديان والعقائد الموروثة وفي الكتاب الأبيض الذي أصدرته الحكومة الإنجليزية عن التعليم بعد الحرب وفي تقارير الأحزاب التي وضعت في ذلك وفي مناقشة مجلس العموم واللوردات لهذا الكتاب من هذا الشيء الكثير.

ونحن العرب قد ورثنا مفاخر هذه الحياة الروحية ومظاهرها فأقطاب الرسالات العظمى وأنبيأؤهم المطهرون في أوطاننا نشأوا وعلى أرضنا درجوا ورموز الديانات المقدسة لا زالت شامخة باذخة في ديارنا تهوى إليها قلوب المؤمنين بالكتب والرسل في أنحاء الأرض - وهذا القرآن الكريم الذي ورثناه نحن العرب فخذ لغتنا ورفع الله به ذكرنا وخاطب به نبينا فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] كما خاطبنا فقال ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] هذا القرآن قد حدد أهداف الحياة الروحية تحديداً دقيقاً مبسطاً بعيداً عن الأوهام الخيالية والفروض الفلسفية ووفق بينها وبين مطالب الحياة العملية توفيقاً عجيبياً لم يستقم لغيره من الكتب ولم يتح لسواه من مناهج الحياة ونظمها.

فإذا كنا نحن العرب نملك هذه الثروة الروحية الجليلة التي تصل القلب الإنساني بجلال الربانية فتملؤه بذلك إشراقاً ورياً وتكرم في الإنسان معنى الإنسانية فترفع في عينه قيم الفضائل العليا وتذكر الناس بجزاء الآخرة فتسمو بهم عن الوقوف عند أغراض الحياة الدنيا وتوثق بين بني الإنسان رابطة من الإخوة لا تمتد إليها يد التفريق والبلى وتقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات على أساس من التعاون والرضى وتضع لأصول المشاكل حلولاً ترتكز على الحق لا على الهوى إذا كنا نملك ذلك كله فإن من العقوق لمجدنا وكتابتنا ولإنسانية كذلك إلا نتقدم للدنيا بهذا الدواء والعلاج الشافي.

ولهذا نعتقد أن من واجب المؤتمر أن يقرر وجوب استمساك البلاد العربية بقواعد حضارتها التي تقوم على ما ورثت من فضائل نفسية وأوضاع أدبية ودوافع روحية على أن نفتبس من الحياة الغربية كل ما هو نافع مفيد من العلوم والمعارف والصناعات والأساليب وعلى أن ندعو أمم الغرب إلى الانتفاع بهذا الميراث الروحي الجليل ونبصرها بما فيه من خير ونذكرها بما يحتويه من نفع وضر وبذلك تقوم الصلة بيننا وبينها على أساس من التعاون المشترك يتأزر فيه العقل والقلب على إنقاذ الإنسانية واستقرار الأمن والسلام.

ولقد يقال إن هذا المعنى ينحدر بالعاملين له والداعين إليه إلى معنى من التعصب الديني أو التحزب المذهبي يمزق وحدة الوطن المجتمع ويفرق بين المسلم وغير المسلم وهذا وهم خاطئ فنحن إنما ندعو إلى الفضائل الروحية والمثل الدينية العليا التي يدعو إليها أهل الأديان جميعاً كما ندعو إلى الانتفاع في حياتنا العملية بهذا التراث القرآني المجيد الذي هو للمسلم دين ونظام ولكل عربي قومية ومجد وللدنيا بأسرها طمأنينة وسلام.

أيها السادة الفضلاء:

حين نريد لأوطاننا وشعوبنا على أيديكم الوصول إلى هذه الأهداف والحصول كل كامل الحرية والاستقلال لا ننكر ولا نغفل أن بيننا وبين دول العالم وأممه وشعوبه صلات يجب أن تبقى ومصالح يجب أن تنظم حتى يقوم التعامل على أساس من الحب والتعاون والإنصاف وأن من واجب مؤتمركم الموقر أن ينظم ذلك كله بحيث لا تسوى مصالح الدول والشعوب على حساب العرب كما لا يحال بين دولة وبين مصلحة من مصالحها الحقيقية التي لا تنتقص من استقلالنا ولا تقف عقبة دون رقينا ونهوضنا.

أيها السادة الفضلاء:

إن يومكم هذا له ما بعده وإنكم لتضعون بقراراتكم التي تقررون لبنات الأساس في نهضة العرب الحديثة بل في نهضة العالم الإسلامي كله وإنكم متى سموتم عن الاعتبارات الشخصية ونصحتكم بتقديم المصلحة العامة على المصالح الفردية فإنكم بأذن الله موفقون فاقدروا تبعثكم وحققوا الأمل في وطنيتكم وتقوا بمقدرة شعوبكم وتأيد الله إياكم والله معكم.

وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛

حسن البنا

المرشد العام للإخوان المسلمين